١٢١

بلا عنوان

روايات احلام

الزّهرة والحجر

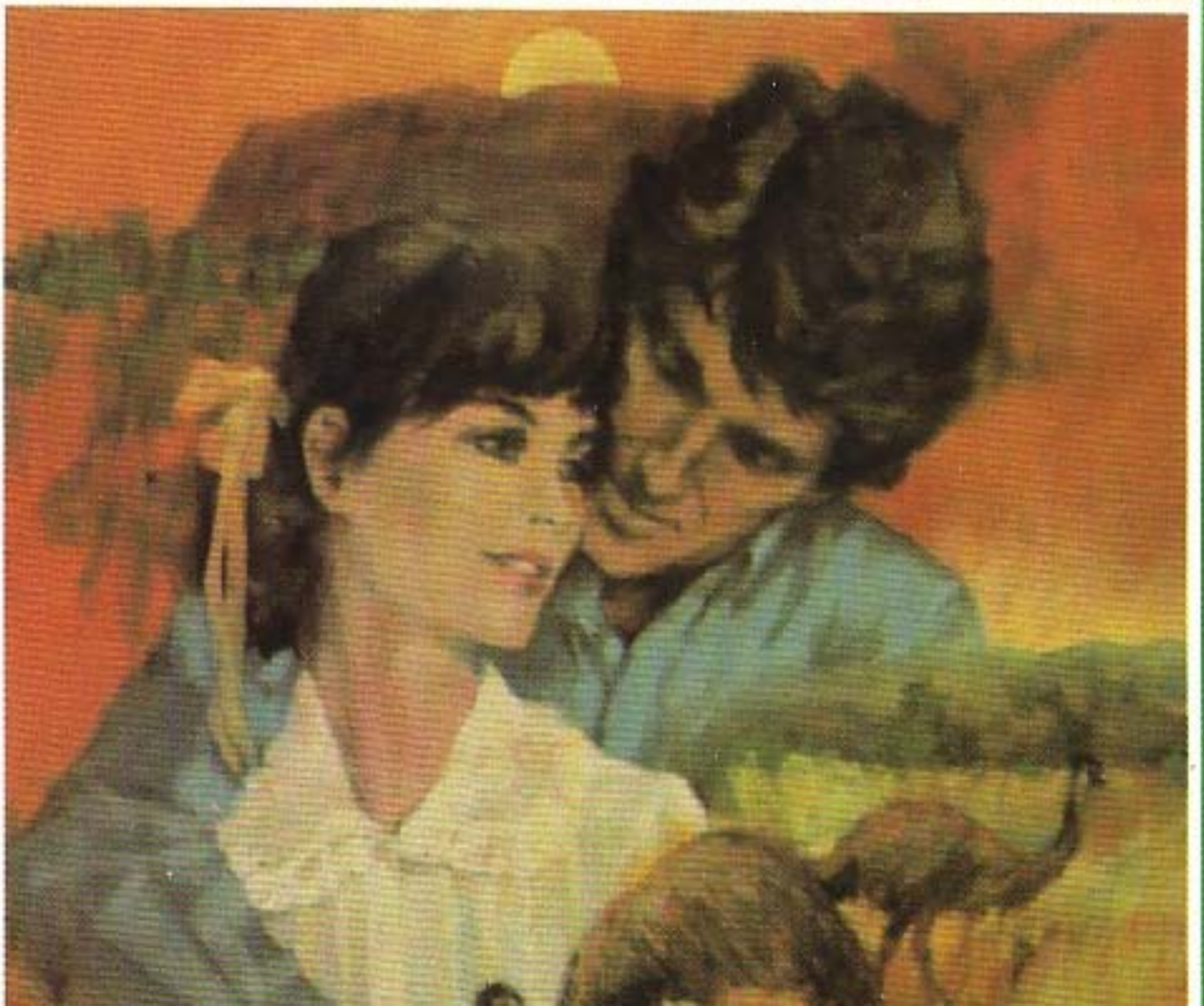

١ ـ أبعد من الكراهية

سأل بهدوء بارد أمام باب قاعة المغادرة:

ـ جواز سفرك جاهز؟

ردت من بين أنفاسها:

ـ أجل، إنه في حقيبة يدي، تأكدت من وجوده منذ لحظات.

كان حولهما جلبة المطار في الدقيقة الأخيرة على السفر.. أناس يتبادلون قبلات الوداع، وأطفال يلوحون ودموع منهمرة على بعض الوجوه وإثارة واضحة على الوجوه. نظرت هيلين كراو إلى ما حولها بيأس، كانت عيناها الزرقاوان القاتمتان واسعتين كثيراً حتى بدتا كعيني دمية.. جمالها المضيء يلفت الأنظار التي كان بعضها متوارياً وبعضها واضحاً، كان إلى جانبها مرافقها الوسيم الطويل القامة، الحازم الشخصية القاسي الوجه الذي بدت عليه سيماء الضجر، حتى التقت عيناه بعيني رجل كان يحدق إليها بشكل مكشوف. فجأة ومضت العينان الرماديتان بتحذير شرس يكفي لردع المتطفل المتهور.

فات هيلين هذا المشهد.. لم تكن تجرؤ على النظر إليه لأنها تعرف بالضبط درجة الازدراء الذي سيبدو في عينيه متى ارتفعتا إليها. لكنها كانت تشعر بقربه بكل ذرة في جسمها، وكانت بحاجة إلى قوة إرادتها كلها لئلا تنهار، وتمكنت من تطويق نفسها بشيء من البرود لتخفي العذاب الذي كان يلوي قلبها..

www.liilas.com

بدأت تقول وصوتها يختنق باسمه:

ـ تيرنت.. تيرنت.. ألا يمكننا..؟

قاطعها باختصار وحدّة: لا شيء يقال..

قطع عليه كلامه صوت المذياع الجامد: «نرجو من حضرات المسافرين على الرحلة رقم ب ١٣٤ على متن طيران نيوزيلند إلى بريزبان، الاتجاه إلى قاعة المغادرة.. هذا آخر نداء لهذه الرحلة».

نظر تيرنت إلى الفتاة الواقفة قربه.. وقال: «وداعاً»

رفعت هيلين رأسها الأسود الشعر بفخر وكبرياء وقالت والتهكم واضح في صوتها:

ـ وداعاً تيرنت.. كانت مقابلتك نافعة.

وانطلقت لتخرج من الأبواب. جسدها النحيل متوتر، رأسها مرفوع، شامخ. وقف لحظات يراقبها وعلى وجهه تعابير قاتمة ثم ما لبث أن ارتدّ بخطوات رياضي رشيق، متجاهلاً نظرات النسوة المنتشرات هنا وهناك.

تمكنت هيلين بطريقة ما من استرداد سيطرتها على نفسها عبر رسميات المغادرة إذ ابتسمت وهي ترد على موظف الجمارك الذي سألها عما إذا استمتعت بعطلتها في «نيوزيلند». انتظرت طويلاً في الصالون حتى توجه الجميع إلى الطائرة وكان تيرنت قد حجز لها في الدرجة الأولى.. ولم يكن ليخطر بباله أنها سافرت بغير هذه الدرجة، فما من فرد من عائلة بايتون سافر في درجة غير الأولى يوماً.

ما إن أصبحت على متن الطائرة حتى جلست بهدوء. لم يكن في هذا القسم الكثير من المسافرين، ومن كان هناك كان مستقراً وعلى وجهه إمارات المسافر الخبير والضجر مما في انتظارهم من جلوس مدة ثلاث ساعات ونصف. كان المطر يتساقط خفيفاً في هذا اليوم الربيعي الدافىء والمغري.. ولكن هيلين لم تنظر إلى الخارج

والطائرة تنطلق برقة على المدرج.

ما إن دارت المحركات حتى حوَّلت وجهها عن الداخل المضيء وتركت العنان للدموع التي كانت محتقنة في عينيها، فها هو التوتر الذي طال كبته يخرج من عقال السيطرة. بكت عشر دقائق بصمت ويأس لفت نظر إحدى المضيفات.

سألتها وهي تنحني فوقها لتخفيها عن عيون الآخرين:

ـ هل أجلب إليك شيئاً؟

تمكنت هيلين من إيقاف دفق الدموع: لا.. شكراً لك.

ـ حسناً. استخدمي الجرس لاستدعائي إن رغبت في ما تشربينه.

وتركتها المرأة.

فتشت في حقيبتها عن منديل ورقي آخر. مسحت عينيها ووجنتيها بشدة، على أمل أن تكون أكثر تعقلاً، وأن توقف هذا الضعف المحرج قبل أن تجعل من نفسها مدعاة للضحك. مع ذلك، تابعت الدموع الانهمار وكأن عندهما بئراً خاصاً بهما ولعل ما واساها عدم وجود أحد قربها ليرى كربها غير المشرف.

لذلك أحست بصدمة حين قال لها رجل اندس قربها متخذاً المقعد المجاور:

ـ إنها على حق.. أنت بحاجة إلى ما هو ساخن.. أراك تعانين من صدمة.

هزت رأسها مختنقة غير قادرة على لملمة الوقار الذي تصدّ به التحرشات غير المرحب بها وتمنت بيأس لو يتركها الناس وشأنها لتجد بعض السلوان على طريقتها.

تابع صاحب الصوت: «أنت تكدرين المضيفة وتكدرينني أيضاً».

اضطرت إلى نفح أنفها لأن صوتها مختنق غير واضح:

ـ أرجوك . . أنا لا أستطيع . . أنا لست . .

وتدفق المزيد من الدموع، متراكضة على استدارة وجنتيها الناعمتين .

ـ لا . . لست هكذا . . صحيح؟

إنه شخص معتاد على التعامل مع النساء المنتحبات . . إنه كتيرنت . بعد دقيقة دس فنجاناً ساخناً في يدها رغم ترددها .

ـ اشربي هذا . . كله .

كان كلامه آمراً، ولأن هيلين أضعف من أن تعترض قبلته .

كرر : «كله» .

ارتشفت ما في الفنجان وهي تشعر بإرهاق شديد جعلها غير قادرة إلا على الخضوع . . ولقد كان على حق، فالقهوة المرّة أدفأت جسمها وأوقفت دموع الذل . حدقت هيلين إلى الأمام رافضة النظر إلى منقذها، لكنها كانت تحس به كثيراً . كشفت نظرة سريعة إليه عن يدين نحيلتين جميلتي الشكل تستريحان على سروال فاخر .

ما إن أنهت شرابها حتى طلب لها فنجاناً آخر، ثم قال بهدوء :

ـ ارتشفيه ببطء أكثر، أحياناً يساعد الكلام إلى شخص آخر قد لا تلتقينه ثانية .

نظرت إليه هذه المرة . إنه في الأربعين من عمره، أو ربما هو أصغر بقليل . بهي الطلة، قسماته متناسقة . . أما الميزة الوحيدة فيه ففكه الذي يدل على التصميم وعيناه الماكرتان اللتان تحملان في هذه اللحظات تعبيراً مكبوتاً، كانت معتادة على مثله . .

قال ببطء وكأنما الكلمات تنتزع منه انتزاعاً :

ـ إن جمالك شيء لا يصدق .

قالت بصوت مخنوق :

ـ ليتني كنت بشعة كالخطيئة نفسها!

تبدلت تعابير وجهه المصدومة، إذ فهم تقريباً ما بها . قال :

ـ سامحيني رجاءً. لست متطفلاً هكذا في العادة.. ولكن لو أحببت أن تخبريني ما الأمر فلن أزعجك بأي تعليق.

حين ترددت، أردف بهدوء:

ـ لا أحاول التحرش بك.. بل أظنك بحاجة إلى محادثة شخص ما، وأؤكد لك أنني أهل للثقة. وأنا كمعظم الرجال أكره رؤية امرأة باكية، وأنت كما أرى في عمر ابنتي.

قالت بفظاظة: «بل أنا في عمر يجعلني حزمة من المشاكل».

كما قال من غير المتوقع أبداً أن يلتقيا بعد هذه الرحلة، في وجهه وتصرفاته ما يوحي بالثقة.. أدارت أصابعها الطويلة النحيلة فنجان القهوة وهي تنظر فيه، وقالت بصوت معتدل يكاد يصل حد الرتابة:

ـ كان عليّ اختيار مطلق مكان إلا مجمع التسوق قرب شاطىء «سيرفرز بارادايز».

لكن روث تزور «سيرفرز» للمرة الأولى، ولم تكن واثقة أنها قادرة على إيجاد طريقها إلى الأماكن الأخرى التي اقترحتها عليها هيلين هاتفياً، فكان ان اتفقتا على موعد ولكن روث تأخرت. انتظرتها هيلين التي راحت تراقب الجموع المرتدين ثيابهم الملونة الصيفية، مع أن الفصل شتاء، ولكن الأمر لا يهم في «السيرفرز» فالليالي باردة، وفي النهارات تشرق الشمس بحدة فوق الشاطىء الساحر وفوق المدينة المكتظة بالناس، كانت روث تستقل باصاً من سيدني إلى الشواطىء الشمالية الاستوائية «لكوينزلاند» وكان عليها التوقف ليوم في سيرفرز. إنها المرة الأولى التي تلتقيان فيها منذ سنة منذ تركت هيلين وظيفتها المملة في سيدني وأتت إلى هنا.

جابت عيناها الجموع بحثاً عن جسد روث الصغير الجميل التكوين.. كانت هيلين تستمتع بالحياة هنا..

قبل مرور وقت طويل، حاول رجل التحرش بها.. لقد انتبهت

لنظراته منذ دقائق. . ولكن لم يرهبه حتى تحفظها ومظهرها الدال على التكبر.

أخيراً اضطرت إلى زجره بغضب:

ـ اسمع. . اذهب من هنا!

ضحك كالخبير: «يا إلهي. . تبدين أجمل وأنت غاضبة! هيا لا تكوني فظّة».

ـ أوه. . أغرب عن وجهي!

وعندما لم يتحرك صاحت: «إن لم تتركني وشأني. . سوف. . ».

قال ساخراً: «سوف ماذا؟ إنّ هاتين اليدين الجميلتين غير قادرتين على أذية ذبابة. . على أي حال، تعجبني الفتاة حين تمثل دور القوية».

أصبحت الآن ساخطة فعلاً وكادت أن تقول له ما رأيها به، حين أتاهما صوت من الخلف جعلهما يستديران.

ـ لقد سمعت ما قالته السيدة. . ما رأيك لو ابتعدت الآن يا ولد؟

في كلام الغريب تهديد واضح وكأنه يقول: وإلا ساعدتك على المضي في طريقك. كان أطول من الشاب المزعج بحوالي عشر سنتيمترات. أما بنية منقذها فأشبه بلاعب هجوم في فريق رياضي، فهو ذو عضلات مفتولة وثقة بالنفس كبيرة.

كانت هذه نهاية المزعج. . وحتى وصلت روث أخيراً كان المنقذ قد عرف عن نفسه ذاكراً أن اسمه آغنوس بايتون وأنه يقضي إجازة هنا، وأنه قادم من نيوزيلند فلمّا ذكرت له اسمها انطلق ليستفيد بما وسعه من الموقف.

لم يكن عجيباً أن تعجز روث عن إخفاء ذهولها لأنها أكثر خبرة منها، وقد بدأت هذه الخبرة منذ المراهقة، وجعلت هيلين تقلق كثيراً لأنها كما كانت تمازحها، لا تهتم بالرجال إلا إذا تقدم أحدهم

بشهادات توصية ليثبت أن لا ضرر منه.

قالت هيلين وهي تدافع عنه:

ـ لكن آغنوس مختلف.

قالت روث ساخرة:

ـ إنه أجمل من معظمهم ويتكلم بطريقة متكبرة. وراء هذا الرجل مال، أراهن على هذا. فتلك الثياب لا تكلف أقل من ثروة وهو يرتديها بعفوية وكأنه معتاد على ارتداء الثمين منها.. متى ستلتقيان ثانية؟

تورد وجه هيلين:

ـ غداً، وقت الغداء.. حسناً ما هذا بعادتي، لكنه مختلف حقاً يا روث.

ـ أرجو هذا من أجلك أنت.. لقد كان حظك سيئاً مع الرجال أليس كذلك؟

قالت هيلين بقلق:

ـ اللطيفون منهم خافوا من هذا الوجه الغبي، والآخرون لم يروا فيّ غير وجه وجسد.

ابتسمت روث:

ـ كم تمنيت لو أن لي جمالاً ساحراً.. ولكنني سعيدة لأنني لست هكذا. فالجمال على ما يبدو لا يجلب السعادة.. لماذا لا تستثمرينه؟ اشتغلي عارضة أزياء، أو أي شيء من هذا القبيل.

ـ فكرت في الأمر.. ولكنني أستمتع بعملي. أعرف أن الحياة في مكتب محام ليست حلم فتاة شابة ولكنها مثيرة، وأنا بارعة فيها.

تمتمت روث: «أجل.. إنه لمن المؤسف أن يكون لديك عقل راجح أيضاً. ستجدين الأمور أسهل إن توقفت عن التفكير كثيراً».

على ضوء ما تلا، بدا هذا الحديث مسلياً بشكل ساخر، فقد أصر آغنوس بايتون على ملاقاتها وقت الغداء وفي كل ليلة. وجعلها

تضحك، كان يمازحها ويعاملها بشيء من الكياسة التي أقنعتها في وقت قصير بالاسترخاء وعدم الحذر.. إنما ليس دفعة واحدة.. فهي لم تثق برجل منذ تجربتها الأولى المخيفة حين كانت في السادسة عشرة.. لكن، قبل أن تنقضي عطلته التي ستدوم ثلاثة أسابيع، عرفت أنها ستفتقده حين يعود إلى بلاده.

قال مقترحاً في الليلة التي سبقت رحيله:

ـ لماذا لا ترافقينني؟

ترددت ممزقة بين أن تغني طرباً، وبين المعرفة بأن غرام العطلة نادراً ما يتحول إلى ما هو أكثر من غرام عابر.

قال يجادلها:

ـ آن لك أن تري شيئاً من العالم.. فليس لديك من تفكرين فيه غير نفسك.. عرفت أن لا أقرباء لك هنا.

قالت: «ما أعرفه أن لا أقارب لي في أي مكان».

كان والداها مهاجرين إنكليزيين وحين هربت أمها مع رجل آخر اضطر والدها إلى التخلي عنها للحضانة.. بعد فترة ابتعد تاركاً إياها في دار للأيتام حيث لم تكن الإقامة سيئة، فقد كانت سعيدة في الدار الكبيرة، مع أمهات متطوعات و«عائلة» كبيرة مؤلفة من أولاد آخرين ظروفهم كظروفها وهي حتى الآن على اتصال بالعديد منهم ومن بينهم روث.. لكن النبذ الذي عانت منه في عمر مبكر، وتأثير جمالها الجسدي في الرجال، أجبرها على تحصين أحاسيسها بالقوة. ذلك الحصن الذي اخترقه آغنوس بسهولة.

قالت بصوت أجش وهي بين ذراعيه: «أوه آغنوس، هذه قصة خرافية، ولن تكون هي ذاتها في ضوء النهار».

رد بعناد: «ربما ليس بالنسبة لك ولكنني أعرف ما أشعر به، ولو سمحت لنفسك لشعرت بالشعور ذاته.. جربي.. فلن ترحلي إلى الطرف الآخر من العالم.. إنها على بُعد ألف ومئتي ميل عبر

البحر».

وأحست بالإغراء.. آه كم أحست بالإغراء. لكن إضافة إلى ألف ومئتي ميل في البحر هناك مسألة تذاكر السفر.. نعم لديها المال الكافي لها، ويمكنها اعتبار سفرها عطلة.. ولكن هنا تكمن المشكلة، إذ لا يمكنها اعتبارها عطلة، لأنها حصلت على عطلتها لتوها، لذا فهي مضطرة للاستقالة من وظيفتها الجيدة ذات الراتب المرتفع. وثمة مشكلة أخرى هي صعوبة إيجاد وظيفة بسبب الوضع الاقتصادي الراهن.

قال وهو يحثها:

ـ ستقيمين في «تي ناوي».

ـ تي ناوي؟ وما هي؟

ضحك: «إنها المكان الذي أعيش فيه.. مزرعة في أقصى شمال نيوزيلند.. ليست بعيدة عن البحر، أو عن البلدة، أو عن الجبال، ستعجبك كثيراً».

ابتعدت عنه والأسى المعهود يتملكها:

ـ واثقة أنها ستعجبني.. ولكنك تعلم أنني لا أستطيع آغنوس. قد لا يهم الأمر في نيوزيلند.. لكن تصرفاً كهذا هنا يدفع ألسنة الناس إلى الانطلاق.

ضحك وهو يمسك يدها بيده:

ـ حمقاء! أمي الرائعة وأخي الأكبر يعيشان هناك. ألا ترين أنك ستكونين آمنة؟

ارتفعت البسمة إلى شفتيها، بسمة الشعور بالراحة وبالأمل لأنها التقت أخيراً رجلاً يستطيع أن يرى أشياء وراء جمالها..

قالت بغبطة:

ـ يعجبني ما ذكرت عن أمك، ولكنني لست واثقة بشأن أخيك.

ـ اتركي الأمر.. فأنا أحب تيرنت كثيراً.. لكنه رجل يؤثر في

النساء، حتى نسائي اللواتي يجب أن يكن أكثر حكمة.

مازحته سائلة: «صحيح؟ وماذا عنك؟».

ـ إن قارنتني بتيرنت فإن مجالي أضيق من مجاله.. تعرفين أن والدي مات ونحن صغار، وبما أنه الأكبر سناً تحمل المسؤولية، وكم كانت مسؤوليته صعبة. فعدا «تي ناوي» كان هناك مزارع أخرى، وسلسلة من الأعمال المتعلقة بها.. ولعل هذه المسؤوليات الكثيرة جعلته رجلاً قاسياً.. ولا مجال أبداً إلى المقارنة بيني وبين تيرنت.. عادة أنا أحصل على المرح وهو يحصل على المجد.

تحركت هيلين مقتربة إليه أكثر:

ـ يبدو لي من كلامك أنه مخيف.

ـ أعتقد أنه كذلك..

كان الوقت متأخراً، ولكن البدر أنار لهما الطريق. كانا قد تعشيا وأمضيا وقتاً ممتعاً، بحيث لم يعد أي منهما يرغب في إنهاء الأمسية.

أضاف وهما جالسان على الرمال:

ـ أوه.. إنه مخيف قليلاً، وصلب كالصخر.. لكنني سأكون كاذباً إن قلت لك إن النساء لا يغضون رؤوسهن أمامه، ليس في هذا العالم ما لا يستطيع التعامل معه.. وهذا ما تحبه النساء.. الأمان، أليس كذلك؟

ـ أظن أن معظمهن يردن الحب، الذي هو أكبر أمان.

ضمها فجأة إليه: «أنت لطيفة.. مثل تفاحة حلوة، نظيفة، ندية.. لقد وقعت رأساً على عقب في حبك. عندما تأتين إلى «تي ناو» فتعالي واضعة في إصبعك خاتمي!»

وقف قلبها في حلقها يسده:

ـ من حق أمك أن تعرف بأمري قبل أن تقرر شيئاً، ثم قد تغير رأيك قبل وصولي إلى هناك.. وكثيراً ما يحدث هذا!

ـ لن يحدث لي . .

وأحنى رأسه يعانقها .

صعب عليها أن تثبت على رأيها خاصة بعدما أظهر لها الخاتم الذي اختاره لها . . حجر زفير بلون عينيها تحيط به أحجار ألماس صغيرة . . ولكنها عرفت أنّه من غير الطبيعي أن تظهر على باب داره هكذا وتقول إنها خطيبته . . فلم يمض على تعارفهما أكثر من ثلاثة أسابيع وهذا وقت غير كافٍ .

همس لها :

ـ أوه . . حبيبتي . . أحبك كثيراً . . قومي بترتيبات سفرك في أسرع وقت ممكن . . أرجوك . . سأكون بانتظارك .

ولكنه لم يكن بانتظارها . . بعد شهر من هذا، حين وصلت إلى مطار أوكلاند، وجدت أنها وحيدة وليس هناك من يستقبلها . بعد لحظات ارتباك حملت حقيبتها وتوجهت إلى مقعد لتجلس عليه . كانت متعبة وقلقة بشأن كيفية استقبال عائلة آغنوس لها، عرفت من رسائل آغنوس أن تي ناوي تبعد عدة ساعات عن أوكلاند . .

من الممكن أن شيئاً ما أخّر آغنوس عن المجيء . . وربما لا يستطيع الوصول إلى هاتف ليعلمها بتأخيره .

حل مكان ركاب طائرتها مسافرون إلى سنغافورة، ثم سمعت اسمها من مكبرات الصوت، وطُلب منها التقدم إلى شباك تذاكر الخطوط الجوية النيوزيلندية .

وكان هناك يسحر موظفة الاستقبال . كان ظهره إلى هيلين، لكنها ستعرفه أينما كان . .

قالت وهي على بعد نصف خطوة منه : «آغنوس؟» .

التفت ولكنه لم يكن آغنوس .

تلاشت ابتسامتها التي كان نصفها إثارة ونصفها الآخر قلقاً . تجاهل تيرنت يدها الممدودة وراح يقوّمها بنظراته وبعينيه الصافيتين

الرماديتين الباردتين. أحست ببرود، فتوترت ملامحها أمام جليد نظرته.

ـ آنسة كراو؟

كان صوته أعمق من صوت آغنوس وأكثر حدة وصلابة. أحست أنها تكاد تختنق وهي ترد:

ـ أجل.. أنا هيلين كراو.. لا شك أنك شقيق آغنوس.

ـ تيرنت بايتون.

واقتادها خارج أبواب المطار الزجاجية.

تسللت الريح إلى بنطلونها الجينز، وإلى كنزتها الصوفية الرقيقة بشراسة المنشار الكهربائي.. أسرعت الخطى مرتجفة.

وصلا إلى سيارته الكبيرة التي كانت موحلة، فتح لها الباب، ثم ارتدّ ليضع الحقيبة في الصندوق، كانت السيارة الفخمة من الداخل دافئة.. صرت على أسنانها المرتعشة لحظات وهو يسير مستديراً حول المقدمة.. يا إلهي ما أضخمه! كتفان عريضتان لم تتمكن حتى البذلة العملية الفخمة التي يرتديها من إخفائهما، ساقان طويلتان، لا شك أنهما تجعلانه أطول من آغنوس البالغ طوله فقط مئة وثمانون سنتمتراً، حوله هالة من الثقة بالكاملة بالنفس. كان يتحرك برشاقة، ليس في حركته تثاقل الرجل الضخم.

لقد تلقت التحذير مسبقاً.. فإن كانت السيدة بايتون مهيبة كهذا الرجل الذي التقاها فستضطر إلى السير بخطوات حذرة.

عندما وضع نفسه في مقعد السائق، كانت تخلع معطفها. مد يده يقول بنفاد صبر: هات.

ـ لا بأس، سأتركه على ركبتي.

ـ وتتضايقين بهدوء؟ يمكن وضعه في الخلف.

لأن المعطف أمر سخيف لإثارة ضجة كبيرة حوله أعطته إياه فتلامست أصابعهما، ولم تستطع منع نفسها من الإجفال وكأنما

لذعت من لمسته.

ثم خلع سترته فبان عرض كتفيه، ابتلعت هيلين ريقها، وأشاحت وجهها عنه، وركزت نظرها على يديها.

لم يقل شيئاً، ولكنها كانت ترتعش.. تحس أكثر من اللازم بالصمت العدائي المنبعث منه. بدا جو السيارة وكأنه مليء بأسلاك شائكة.. وهذا ما أربكها وأغضبها.. لِمَ هذا الجو؟

لم يكن هذا الجو نابعاً منه فقط.. بل كان قلبها تحت قماش كنزتها الصوفية يخفق بصوت مرتفع وخفقاته أسرع من العادة. راحتا يديها عرقتان. كانت أحاسيس غريبة تتسارع في كيانها حتى أحست أنها تشتعل ناراً.. الحب من النظرة الأولى إحساس معروف كثيراً.. ويبدو أن ما تشعر به الآن هو نقيض ذلك وعكسه هو الكراهية العفوية. كانت مستعدة للإعجاب به، لكن هذه المقابلة الفظة أبعدت هذا الاحتمال وجعلت من السهل الشعور بالكره تجاهه.

لكن الكراهية ليست الكلمة المناسبة، خاصة بالنسبة له.. لم تفضح تعابير وجهه الكثير، لكنها واثقة أنه عانى من صدمة ما للحظة قبل أن يرتدي قناع الازدراء البارد الذي أثار دفاعاتها بسرعة.

كانا قد سارا عشر دقائق أو يزيد حين ضجرت من الصمت. ابتلعت ريقها وسألت:

ـ أين آغنوس؟ قال إنه سينتظرني في المطار.

كان صوتها ويا للدهشة هادئاً ورزيناً. رد تيرنت بايتون ببرود:

ـ إنه يعمل في «تي ناوي».. رغم كل شيء.. نحن نعمل.. آنسة كراو.

أدفأت لمسة نار نظرتها الزرقاء:

ـ واثقة من هذا.. وأرجو ألا يكون وصولي قد ألهاكم، سيد بايتون.

ـ أبداً . . كنت في أوكلاند في عمل .

وهذا كان نهاية الحديث . . لا يمكنه أن يجعل من عدم موافقته عليها أكثر وضوحاً . . أدارت هيلين رأسها تنظر من النافذة إلى الخارج . . أزعجها هذا العداء المفضوح، ولكنه حرك فيها تصميماً لا يتزحزح، كان يتناقض مع جمالها الهش المغري، وكان هذا العناد والثبات يذهل أحياناً من يكون على اتصال بها . . ارتفع ذقنها بوقار، وقسا وجهها الرائع التقاسيم . . إن كان تيرنت بايتون يريد معركة فليكن ذلك . قد تبدو ضعيفة، لكن ما هو مخبأ تحت هذه الواجهة النحيلة صلابة وإرادة قوية وشجاعة .

لقد قال آغنوس إن النساء يجدنه جذاباً . . وها هي امرأة تجده منفراً للغاية .

امتدت أمامها مناظر أوكلاند، بعضها أخضر وجميل رغم المنازل المنتشرة . . امتدت الطريق العام في الضواحي، كاشفة عن الأشجار المزهرة والمرجات الخضراء المرتبة . .

على الرغم من الجو المتوتر في السيارة، اهتمت هيلين بالمناظر حولها، فوجدت تلال البراكين الخامدة مثيرة جداً للاهتمام . . جوانبها المدرّجة مغطاة بالعشب، إلا التلة الكبيرة قرب الميناء التي انتشرت فيها الأشجار .

ولأنها لم تستطع كبح فضولها سألت :

ـ ما هي الخطوط حول البراكين؟ أهي طرقات للماشية؟

قال : «كانت تستخدم حصوناً على يد شعب «الماوري» والمدارج هي بقايا المتاريس التي كانوا يحتاجونها لإبعاد بعضهم عن بعض» .

هزت رأسها : «إن كانت التربة بركانية فهذا يعني أنها غنية بالمعادن» .

ـ جداً . .

ـ كم عمر هذه البراكين؟
رأت نظرته الساخرة ومع ذلك هزت كتفيها وأضافت:
ـ حسن جداً، إنها تبدو صغيرة وحديثة.
ـ هي حسب الشروط الجغرافية حديثة العهد..
ـ لا شك أن البراكين كانت نشطة هنا فترة طويلة.
ـ لم يكن في المنطقة بشر من حسن الحظ.
كانت لهجته لهجة المتفوق علماً ومعرفة، وهذا ما جعلها تتشنج فجأة.. ردت بحدة وبدون تفكير حكيم في ما قالته:
ـ أعرف.. أعرف أن شعب الماوري جاء إلى هنا منذ ألف عام. أليس كذلك؟
ـ أجل، أبحروا من تاهيتي، عبر جزيرة «كوك». أكنت تراجعين بعض المراجع آنسة كراو؟
في طفولتها، كان حلمها أن تصبح عالمة آثار.. وقد منعتها ظروفها من تحقيق هذا الهدف ولكنها ظلت مهتمة اهتماماً خاصاً بالموضوع. وإذا كان المرء يعيش على ساحل المحيط الهادىء، فالاهتمام بالآثار يعني الاهتمام بتاريخ العرق الماوري، أصحاب القوارب الصغيرة المجوفة الذين قطعوا المحيط من هاواي إلى «إيستر ايلند» وإلى نيوزيلند، وأقاموا المستعمرات أينما حلوا. كانوا مثل «القايكنغ» في بحور الجنوب. لقد قرأت كتاب السير بيتر باك «قايكنغ الشرق».. وأثارتها قصة هذا الشعب البربري النبيل.
لكن التلميح في لهجة تيرنت لم يعجبها، ولا أعجبتها لهجة الازدراء الخفية التي رافقته.. فردت بجفاء وحدة متنافرتين مع مظهرها:
ـ طبعاً.. شعرت أن عليّ إن أردت الاستفادة من العطلة أن أعرف أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المكان الذي سأزوره.
التفتت العينان الرماديتان الباردتان نحوها:

ـ وهل هذه.. عطلة؟ آغنوس متأكد بطريقة ما أنه سيقنعك بالبقاء.

فكرت: وأنت عازم على ترحيلي.. لكن لماذا؟ ما الذي جعله ضدها؟

هذه السيارة الفائقة الجودة الباهظة الثمن، هي أحد الأسباب، لقد عرفت أن عائلة آغنوس غنية، إنما من يملك مثل هذه السيارة لا يحتاج لمراقبة تطلعاته.. إذن عائلة بايتون ليست غنية فقط، بل هم أثرياء بشكل يثير الغثيان. أيظنها صائدة ثروة رخيصة تسعى وراء زوج ثري؟

حرك الغضب عضلة صغيرة في جانب فمها، وشد خطوط شفتيها الرقيقتين. لم تكره قطُّ رجلاً كما كرهت هذا.. ولديها هاجس ينبئها بأنه يبادلها الكراهية.. إنما ليس للأسباب ذاتها. لقد شعرت بنظرته الحادة كالسوط منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها، ومع أنه كان مستعداً لكراهيتها فما من شك أن ردة فعله كانت أقوى وأعمق من اعتراضه على صديقة لأخيه يظنها تبحث عن المال.

أرادت أن تخبره بأن الهدف من قدومها إلى هنا تمضية عطلة تستطيع خلالها معرفة مشاعرها الحقيقية تجاه آغنوس والعكس.. ولكن نوعاً من الولاء أبقاها صامتة، فالواضح أن آغنوس غاضب من تصرفات أخيه. لا شك أنه قال أكثر مما يجب أن يقول، لذا لن تجعله يبدو أحمق بقولها ما هو مناقض لقوله.

ولكن كان يمتزج مع ذلك الولاء غضب بسبب عجرفة هذا الرجل وبرودته.. إذا كان ذلك الدفء الجميل الذي شعرت به نحو آغنوس حباً، فسيبدو تيرنت غبياً لافتراضه أنها تسعى إلى زوج.. لكن إن خبا تجاذبهما ومات في ضوء الواقع البارد فهي ساعتئذ ستطلب اعتذاراً منه قبل أن ترحل. وقد لا تحصل على اعتذار من تيرنت بايتون لأنه من الصنف المتسلط الذي يسير على الأرض واثقاً

من سلطته.

ربما عليها أن تسأل نفسها لماذا تشعر بمثل هذه المشاعر القوية تجاه هذا الرجل، ربما أقنعت نفسها بأن الأمر لا يزيد عن كونه مجرد حدس تحس به كل امرأة حين تُهدد..

* * *

٢ ـ المال والسلطة

شق الطريق نفسه حول التلال وعبر واد ضيق فيه نهر. . ثم كان أمامهما أراض لتلال شديدة الانحدار، معشوشبة كلها تقريباً، إلا القليل المغطى بأشجار الصنوبر وبدغلات خضراء. كانت الطريق ممتازة، إلى أن تركا الطريق الرئيسية واتجها شرقاً في طريق ضيقة بعيدة. . بعد بضعة أميال، تحولت الطريق إلى مساحات ممتدة من الحفر والتموجات، لكن السيارة الكبيرة خففت من تأثيرها. .

كانت ساقية صغيرة تجري قربهما، ضفتاها محفوفتان بشجيرات شائكة غريبة معروفة باسم «كتّان نيوزيلند» ونوع من الأشجار الشبيهة بالكتان حول جذع شجرة النخيل المروحية الأغصان.

فك الفضول عقدة لسانها ثانية فسألته سؤالاً، أجاب تيرنت عنه:

ـ إنه الكرنب النخيلي، وهو أقرب شيء للزنابق. . أكل المواوريون والمستوطنون الأوائل قلب الورق كخضار، ولذا سموها بشجر الكرنب. وهي تنمو قرب الماء وفي أراضي المستنقعات.

هزت رأسها وسألت: «كم نبعد عن «تي ناوي؟»

ـ بضعة كيلومترات. نحن على بعد نصف ساعة من أقرب بلدة، وهي بعيدة كثيراً عن «السيرفرز» على ما أخشى.

لن يثيرها لترد رداً غير حكيم:

ـ حسناً . . ماذا تعني كلمة «تي ناوي»؟

ـ العلامة. أنا دهش. لماذا لم يخبرك آغنوس بكل هذا؟ أراه متكتماً بشأن ذلك.

ـ ربما ظنني غير مهتمة.

صمتت قليلاً ثم أردفت بمكر:

ـ أتعلم، كنا مشغولين كثيراً ببعضنا بعضاً فلم نهتم بأي شيء آخر. لماذا سميت العلامة؟ إنه اسم غير عادي.

لم يظهر عليه أي تأثر بكلامها، وأجابها بصوت بارد:

ـ في ذلك الوقت الذي سميت فيه كانت تقف كصخرة علامة، وكانت تستخدم كمنارة للسفن ففي تلك الأيام كان السفر يتم عن طريق البحر.

ـ أمن الممكن رؤية البحر من المزرعة؟

ـ أجل. . نحن لا نبعد أكثر من نصف ميل عن الساحل.

بعد صمت قصير سأل:

ـ أتجيدين قيادة السيارات آنسة كراو؟

ـ لا.

ـ أمر مؤسف. . ستكونين معزولة هنا. . إن بقيتِ هنا مدة طويلة فعلى آغنوس أن يعلمك.

ما همّت بالرد عليه ضاع لدى مواجهتهما شاحنة صهريج عند المنعطف. . ولم يكن هناك مساحة للمركبتين. . شهقت بحدة وخوف، واشتدت يداها على ركبتيها وهي ترى المركبتين تمران وليس بينهما غير إنشات قليلة.

لكن أحداً من السائقين لم يهتم، بل الواقع أن سائق الصهريج أطلق زموراً خفيفاً، أجابه عليه تيرنت، ولوّح بيده.

ـ لا أظنني سأتعلم خاصة إن كان ذلك يعني أن ألتقي بجرافة كهذه عند أي منعطف. . ما كان هذا؟

ـ صهريج حليب. . يجمع الحليب من المزارع يومياً ثم يأخذه إلى المصنع، حيث يحوّل جبناً وبودرة حليب وهناك شاحنات السماد. . ثم هناك شاحنات المواشي بالتأكيد وهي تنتقل دائماً، بمقطورة فيها طبقتان عادة.

ـ أراك تحاول ترهيبي. . ولكن المرء يعتاد على كل شيء مع الوقت.

وجّهت يداه السمراوان المقود إلى مدخل بوابات يقع بين صفين من الأشجار:

ـ ولا شك أن المال يذلل الصعاب مهما كانت.

قال بعد لحظة بهدوء وكأنه لم يوجه إهانة لها:

ـ «تي ناو» المنزل في منتصف التلة تقريباً.

عضت هيلين شفتها وهي تنظر حولها. . في البدء رأت مباني لها سقيفات ضخمة مطلية باللون الأخضر القاتم ورأت مجمعاً كاملاً من مخازن الغلال ومساحات وحظائر وصفاً طويلاً من بيوت الكلاب. . وفي مكان أكثر ارتفاعاً رأت منزلين يحيط بهما حدائق غنّاء.

يقع المنزل الرئيسي على مساحة تمتد حول ثلاثة فدادين وهو بناء كبير ممتد له شرفات ونوافذ قوسية، وزوايا منعزلة صغيرة يحيط بها برج يطل على البحر.

سحبت هيلين نفساً عميقاً وهي تميل إلى الأمام. . فالمنظر أشبه برؤيا عبر هالة من الزهور الوردية والبيضاء وأشجار المانيوليا الضخمة، وزهور الخوخ، وزهور الدراق البيضاء الأنيقة. . قرب الطريق الداخلية صف من زهور الليلاك.

من غرس هذه الحدائق كان يعرف تأثيرها في القلوب، وحيّت هيلين زارعها بينها وبين نفسها.

التفت الطريق الداخلية حول المنزل، لكن تيرنت اتخذ منعطفاً

آخر إلى جانب المبنى، أوصلهما أمام كاراج كبير حيث توقف. كانت الزهور الربيعية مزهرة في مساكب تبهج القلب.. من مكان ما تناهت إليها رائحة شجر الغار.

ترجَّلت هيلين من السيارة، فلاحظت ببعض الرهبة أن الكاراج يضم بين جنباته سيارة أخرى صغيرة، إضافة إلى لاندروفر موحل.. الأشياء القليلة التي ذكرها لها آغنوس عن حياته لم تهيئها لرؤية هذا الثراء الفاحش.. كادت للحظة ترتدّ على عقبيها، ولكن نظرة إلى تيرنت بايتون ووجهه المتجهم وهو ينزل حقيبتها من صندوق السيارة شدت من عزيمتها، أثرياء أم فقراء إنهم مجرد بشر عاديين، ولا شك أن آغنوس لا يرفضها أو يرفض ماضيها.

ـ جاهزة؟

جاهزة لماذا؟ للمقصلة؟ جعلها التوتر طائشة، وهذا ما لا تطيقه. هزت رأسها وسارت قربه وهي تحس أنها صغيرة وأنها غير ذات قيمة أمام هذا الجسد الطويل الرشيق.

انفتح الباب ما إن وصلا إليه وكانت المرأة التي فتحته نحيلة بين حاجبيها عبوس دائم، عيناها تحاولان بصعوبة عدم إظهار فضولها.

ليست هذه المرأة بكل تأكيد السيدة بايتون.

قال تيرنت وهو يقدمهما بكياسة وتعال:

ـ هذه هيلين.. وهذه جانيت دورنت التي تدير المنزل.

تبادلتا التحية وتصافحتا، ثم قالت السيدة دورنت بحدة: «أمّك بانتظارك».

ـ إذن، رافقي هيلين لتقابلها ريثما أضع حقيبتها في غرفتها.

ـ بالتأكيد.. في الغرفة الذهبية تيرنت.. من هنا آنسة كراو.

كان المنزل جميلاً قديماً وواسعاً سقفه مرتفع وجدرانه مغطاة بخشب كهرماني دافىء.. في الردهة الواسعة ثريا ضخمة تتدلى كالشمس، ثريا عصرية تليق بما حولها، وكانت خزانة كورية الطراز

قرب جدار. حاولت هيلين ألا تنظر حولها ولكن ما إن وقعت عيناها على لوحة لمنظر طبيعي حتى خففت خطواتها ودار رأسها.

قالت السيدة دورنت: «رائعة.. أليست كذلك؟ اشتراها تيرنت.. لقد اشترى لوحات مميزة.. يظن بعض الناس أنها عادية كثيراً. لكن هكذا هو الريف في هذه الأماكن».

هزت هيلين رأسها متذكرة التلال المرتفعة الشديدة الانحدار التي مرت بها.

لقد التقط الرسام روح هذا المنظر الأرضي والقوة التي لا تلين والحيوية التي فيه.. فبدا في اللوحة قوة واحترام، وحب من نوع ما.

قالت السيدة دورنت بحدة: «من الأفضل أن نكمل طريقنا».

كانت الغرفة التي كانت تنتظرها فيها مضيفتها ضعف أية غرفة جلوس اعتادت هيلين عليها. لم يصدمها جوها الرائع لأن نظرتها وقعت على المرأة التي وقفت لتحييها، وأسرتها.. وضعت المرأة من يدها سجفاً كانت تطرزه بشكل دقيق وجميل. قاست الواحدة منهما الأخرى، ظلت المرأة المديدة القامة تقوم المتطفلة، حتى قالت بصوت بارد لا لون له:

ـ أهلاً بك في «تي ناوي» هيلين.. أكانت رحلتك مريحة؟

ـ كانت مزعجة قليلاً ولكنها مريحة، شكراً لك.

الواضح أن السيدة بايتون لن تترك عدم رضاها يقف حائلاً في طريق كياستها. وعلى هيلين عدم الشعور بالهزيمة، فتمتمت:

ـ إنه للطف منك أن تستقبليني.

ـ أبداً.. أتمنى لك عطلة ممتعة.

حسناً، هذا يضعها في مكانها الصحيح. أجابت: واثقة بأنني سأستمتع بها.

التفتت مضيفتها مرغمة إلى مدبرة المنزل:

ـ لا شك أن الآنسة كراو ملهوفة إلى بعض الشاي.

ـ سأذهب لأحضره.

وخرجت تاركة هيلين التي شعرت وكأن صديقتها الوحيدة هنا هجرتها، مع أن السيدة دورنت لم ترحب بها بشكل خاص، ولكنها كانت على الأقل أقل عدوانية من الأسرة.

ـ اجلسي هيلين.

انتظرت السيدة بايتون حتى جلست هيلين في كرسي صغير ذي مسندين، ثم جلست. أخذت تطريزها على ركبتيها وانكبت عليه بضع لحظات قبل أن ترفع نظرها بحدة، وتقول:

ـ أنت جميلة جداً هيلين. كان آغنوس يتغنى بمدحك منذ عاد.. ولكن عندما يحب آغنوس يميل إلى رؤية الدنيا كلها من منظار وردي.. أعتقد أنه قال إنك تعملين في مكتب.

من الغباء أن تفقد أعصابها لهذا الازدراء.. فابتسمت:

ـ أعمل عند محامي.

كانت تعمل عند محامي، واضطرت إلى الاستقالة.. والآن لبدو لها استقالتها أغبى تصرف تصرفته في حياتها.

قالت السيدة بايتون: «مثير للاهتمام».

ولكنها في الواقع تعني أنه عمل مضجر، ومن مستوى غير راقٍ.

ـ من لها جمال كهذا قادرة على إيجاد عمل أفضل من هذا.. عرض أزياء مثلاً؟

ـ أحب عملي..

أحنت السيدة بايتون رأسها مجدداً، وعادت إلى تطريزها.

ـ لا تبدين أوسترالية.

ـ والداي من مواليد ديڤون في بريطانيا.

ـ هذا يفسر الأمر إذن.. أعتقد أن آغنوس ذكر أنك يتيمة.

ـ لا أعرف.

تعالت شرارات نار عميقة في عيني هيلين طالما بقيت مخبأة تحت رموشها. . أشعرها عدم ترحيب هذه العائلة بالبرد والخوف، ولكن الغضب خفف من وطأة العزلة الباردة التي بدأت تشعر بها، وأدفأها وأعاد إليها ثقتها بنفسها:

ـ هجرني والداي لدى انفصالهما، إذ كان طريقاهما في الحياة مختلفين.

حركت المرأة ثغرها بازدراء:

ـ آه. . يا إلهي! كم. . كم ينم هذا عن عدم إحساسهما بالمسؤولية!

ـ أعتقد أنهما كانا عديمي المسؤولية.

ـ إذن تربيت في ميتم؟

ـ تقريباً.

ـ أمر مأساوي.

وضعت السيدة التطريز من يدها لدى دخول السيدة دورنت الحاملة صينية شاي فاخرة عليها أدوات فضية، ووضعتها إلى جانب السيدة بايتون. كان هناك ثلاثة فناجين، إذن سينضم تيرنت. . ولا شك أنه سيساند أمه في جعل هذه الدخيلة تحس بأنها أحط قيمة وتهذيباً.

وصل مباشرة بعد خروج السيدة دورنت. . كان صوته العميق في الردهة مسموعاً وهو يقول شيئاً قبل أن يدفع الباب ليدخل.

ارتشفت هيلين قليلاً من الشاي لترطب فمها الجاف، وانتظرته حتى ينضم إلى أمه في هجومها. . فيما كان يتناول الفنجان من أمه، هز رأسه نحوها بتحفظ.

ـ أين آغنوس؟

ـ إنه في ساندیمان ينقلون القطيع إلى «كريك تو». التكهنات الجوية تنذر بأن المطر والريح قادمان قبل الصباح، وأنت قلت إن

ساندیمان مکشوفة کثیراً.

ـ هذا صحیح.

أدار رأسه یخاطب هیلین:

ـ لکل حظیرة ومرعی اسم.. ینقل آغنوس قطیعاً من النعاج مع أحمالها الصغار إلی حظیرة آمنة.. متی غادر؟

ردت الأم: «قبل ساعتین.. ویجب أن یعود قریباً».

نظرت بهدوء إلی هیلین:

ـ یعمل الرجال هنا ساعات طوالاً.. وغالباً ما یقضون أوقاتهم في الخارج قبل الفطور ولا یعودون إلا بعد الظلام. هذا الوقت من العام وقت عمل بالنسبة لنا. بالتأکید کل الأوقات أوقات عمل ولکن الربیع یزخر بالعمل الکثیر. أخبریني هیلین.. أتجیدین الفروسیة؟

جاء سؤالها بوتیرة سؤال تیرنت عندما سألها ما إن کانت تجید قیادة السیارات.. امتنعت هیلین بجهد إرادي عن النظر إلیه.

ـ لا.. لم أمتط جواداً قطُّ.

ـ آه. یا عزیزتي المسکینة، أخشی أن یحد هذا من حرکتك هنا کثیراً.. في «تي ناوي» طرق جیدة ولکن العدید منها ما یزال وعراً فنضطر إلی الاعتماد علی الخیل في تجوالنا. أرجو ألا تضجرك حیاتنا الهادئة.

جعلها الغضب متهورة:

ـ أنا لا أضجر أبداً.. أجد الإنسانیة دراسة مثیرة للاهتمام، وأنا أستمتع بالنزهات الطویلة.. إنما آمل أن تسمحي لي بمساعدتك بأیة طریقة.. أعتقد أن السیدة دورنت لا تفعل کل شيء؟

ومضت ألماسة کبیرة عندما أطبقت السیدة بایتون أصابعها علی مقبض فنجان الشاي..

قالت بصوت فیه لأول مرة إحساس ما:

ـ لا.. بالتأکید لا. إن المنزل ککل الأماکن القدیمة بحاجة إلی

صيانة دائمة. وأنا واثقة أنني سأجد لك ما تفعلينه.. مع أن المرء يجب أن يكون محترساً، فهو مليء بالكنوز.

قالت هيلين: «أنا أتعلم بسرعة».

كان الشاي ساخناً وضرورياً لها لأنه أعطاها ما تشغل به يديها.. ربما لهذا قررت السيدة بايتون متابعة التطريز.

قالت المضيفة: «كلي شيئاً، أنت نحيلة كثيراً. هل أنت مضطرة لاتباع الحمية طوال الوقت لتحافظي على رشاقتك؟».

ـ لا.. شكراً، لن آكل شيئاً الآن، أنت تعرفين السفر في الطائرة، إن كنت سأتناول العشاء فمن الأفضل ألا آكل شيئاً الآن، مع أن ما أمامي يبدو شهياً.

فيما كانت تتكلم نظرت إلى تيرنت، فالتقت نظرته الساخرة بنظرتها. لن يساعدها ولكنه يلعب بطريقة متوازنة، لأنه لم ينضم إلى أمه في الهجوم.

بعد لحظات طوال من تواصل العيون، اخفضت رموشها، غاضبة لأنه أخافها. إن السيدة بايتون شخص بمقدورها التصرف معها، لكن تيرنت بايتون يفيض بنوع من الشر والمكر يجعل أعصابها تتوتر. فعيناه الضيقتان المراقبتان لا تفارقان وجهها.

من حسن الحظ أنه أخذ يتكلم مع أمه عن أشياء أخرى، فالواضح أنه كان بعيداً عن المنزل أياماً ويريد أن يعرف ما حدث في غيبته. بعد الشاي اقترحت السيدة بايتون أن تدل هيلين على غرفتها، واقتادتها من الغرفة واتجهت إلى الردهة.

قالت وهي تدفع الباب:

ـ ها هي.. أرجو أن تعجبك. لها حمامها الخاص، إن أردت شيئاً فأعلميني.

لم تفارق عينا هيلين وجه المرأة العجوز وهي ترد:

ـ شكراً لك. سأستحم وأستريح قليلاً، إن استطعت.

- تصرف حكيم. . تناول العشاء في السابعة والنصف، لكن سيأتي أحدهم لاستدعائك قبل هذا.

عندما أصبحت وحدها تركت هيلين لعينيها الحرية في تأمل الغرفة غير المعقولة. صفرت شفتاها صفيراً خافتاً أما نظرتها المذهولة فراحت تستوعب ورق الجدران الأسود الموشى بالذهب. خلف السرير لوحة عظيمة خيالية لزهور ووحوش برّية وأناس. . إنها صورة غامضة، مثيرة، تعطي إحساساً غامضاً وتظهر ألواناً رائعة. السرير مزدوج وواسع، له أربعة قوائم مرتفعة، مغطى بغطاء من المخمل الرقيق وهو مصنوع يدوياً وموشى بالذهب وبألوان سوداء وقرمزية. .

كانت غرفة خيالية متعددة الألوان تبهج النفس. من أشرف على ديكورها كان يمتلك إحساساً قوياً بالمرح وعيناً حاذقة. إضافة إلى ذوق لكل ما هو ملموس ومثير. .

إنها ليست غرفة للراحة. فجأة تراءت لها صورة مفاجئة لها ولبرنت وهما متعانقان فانحبست أنفاسها من فرط الصدمة وعلت وجنتيها حمرة الخجل. . لا شك أن عقلها اللاواعي يتلاعب بها.

أفرغت حقيبتها بسرعة ثم دخلت إلى الحمام الذي زينته ذات المخيلة الخصبة. كانت نظرة واحدة كافية إلى الخزانة لتكتشف مكان الصابون والشامبو، وزيت المغطس، ذات الأسماء الشهيرة. حسناً فليحتفظوا بها، ستستخدم ما لديها، مما هو بعيد كل البعد عن الترف.

وبينما كانت تستحم وجدت نفسها تتساءل عمن أشرف على ديكور مثل هذا المكان الصغير الرسمي جداً، والمفروش بأثاث تقليدي. . ليست السيدة بايتون بالتأكيد. . إلا إذا كان لديها مزايا مثيرة للاهتمام في شخصيتها! إن هذه الغرفة والحمام يكشفان عن نظرة مرحة إنسانية راقت على الفور لهيلين.

جعلها تتثاءب التعب والتوتر الذي حلّ بها منذ التقت تيرنت بايتون ونظرته المخيفة. . وما هي غير دقائق حتى كانت في السرير توشك أن تنام.

ولكن صوتاً خفيفاً دؤوباً أيقظها. . ففتحت عينيها وحدقت لحظات إلى السقف قبل أن تعي أن أحداً يقرع عليها الباب.

أسرعت في النهوض فقد يكون آغنوس. ارتدت روبها وهرعت لتفتح وعلى وجهها إشراقة السعادة والترقب.

صاح: «حبيبتي!»

واحتواها بين ذراعيه يضمها بلهفة زادت من حذرها، مع ذلك استجابت له بأكثر من المعتاد.

ـ أوه. . مضى وقت طويل. . طويل جداً يا فتاتي الحبيبة. دعيني أنظر إليك.

أبعدها عنه ونظر إليها. . فقالت محتجة:

ـ لقد استيقظت من النوم للتو، ولا بد أن مظهري أشعث!

ـ تبدين دائماً كاملة. آه! كم اشتقت إليك! يا إلهي ما أشدَ سروري لأنك هنا!

جاءهما من ورائهما صوت بطيء نبرته فولاذية يخبىء تحت سخريته الازدراء:

ـ بما أنها ستبقى هنا أياماً قليلة أخرى، فلماذا لا تدعها ترتدي ثيابها؟

سرعان ما تمسكت يدا آغنوس بمرفقيها ولكن وكأنه مضطر لإطاعة أخيه الأكبر استرخت قبضته، وأسبل يديه.

قال متجاهلاً وجود تيرنت: آسف حبيبتي.

كان تيرنت قد وقف خلفه وعيناه لا تفارقان وجه هيلين. . وعندما رفعت ذقنها بتحد طافتا على جسدها.

قال آغنوس: «سأعود لاصطحابك بعد عشر دقائق».

رفع تيرنت حاجبيه، وقال بجرأة:

ـ أمهلها المزيد من الوقت لتتبرج، فلتكن نصف ساعة.

عارضته هيلين مبتسمة لآغنوس برقة:

ـ فلتكن عشر دقائق.. سأكون مستعدة.

وكانت مستعدة.. إنما بصعوبة إذ لم يكن لديها فكرة عن طبيعة الثياب المتوقع منها ارتداؤها للعشاء في مثل هذا المنزل. وليس المطلوب ثياب سهرة! ولكن بالتأكيد مرفوض بتاتاً البنطلون والبلوزة.

في النهاية، وجدت حلاً وسطاً. ارتدت فستاناً كالقميص من قماش الجاكار المطبع بالألوان الملتهبة، ذا ياقة صغيرة مرتفعة، تبرز انسياب عنقها الذهبية اللون..

الآن، العطر؟ إنه تهورها الفاخر الوحيد.. إن ثيابها بمعظمها من صنعها، بما فيها الثوب الذي ترتديه الآن. وهذا أمر أصرّت مربيتها على أن تتعلمه كل البنات اللواتي ترعاهن: معرفة الخياطة. ولم تكن هيلين مغرمة بهذا العلم، ولكنها كانت جيدة فيه، ومكنتها براعتها من إلباس نفسها ثياباً أنيقة بكلفة أقل بكثير مما تبدو عليه ملابسها.. إن هذا الفستان ذو طراز كلاسيكي، لا زمن محدد له ومع ذلك يفعل أشياء غريبة بلون شعرها وبشرتها، وبشكل جسدها.

تعطرت بعطرها المفضل، وأصبحت رائحتها كالحلم فقد تدفق عطر «ايڤوار» إلى أنفها.

ستكون الليلة غريبة.. غريبة، كهذه الغرفة التي وقعت بغرامها.

* * *

٣ ـ تهديد!

لقد أحسنت هيلين الاختيار لأن السيدة بايتون كانت مرتدية ثوباً حريرياً رسمياً أسود اللون ولعل ما أنقذه من المظهر المتجهم تفصيله الرائع والعقد الجميل. . بدت بالضبط شخصيتها قوية وسيدة ذات سلطة لا شك فيها، لم يكن شعرها الأبيض يقلل من نضارة وجهها. في أذنيها وضعت ما هو بالتأكيد فصوص ألماسية حقيقية. وفوق خاتم الزواج خاتم فيه ألماسة كبيرة مذهلة.

اتبعت بوقار خطى ابنها الأكبر متخذة الأخلاق الحميدة لتبرز المسافة التي تفصلهما، المرأة الثرية المثقفة الناضجة، والفتاة العديمة الأصل.

لم تتمكن هيلين من الاستجابة إلى محاولات آغنوس لتخفيف حدة الجو. . فقد كان مشحوناً بالتوتر الذي لم تحاول السيدة بايتون أو تيرنت تنحيته.

ما هي إلا دقائق حتى صمت آغنوس. . وتقدمت أمه إلى الهجوم بتعريض هيلين لاستجواب كان شديد الوقاحة بمقدار ما كانت طريقتها في عرضه مهذبة. . وكان يتركز أكثر فأكثر على الهوة بين الفتاة التي لا شيء عندها وبين العائلة التي تملك كل شيء. . قررت هيلين أنها لو كانت في وضع مماثل لوضع السيدة بايتون لأرادت أن تعرف كل شيء عن ماضي حبيبة ابنها وعن أصلها، لذا ردت بهدوء ودقة متجاهلة تصاعد سخط آغنوس، وترقب أخيه.

التفتت مرة أخرى إلى حيث يقف تيرنت المستند إلى رف المدفأة.. وكأنما ليرد، رفع بصره عن كوب العصير الذي في يده، وأخذ يقيمها بسخرية باردة، اقشعر لها جسدها كله.

قررت ساخرة: قاتلي أو انسحبي.. لكن لا للانسحاب إنه أسهل طريق للهروب.. فاحترام النفس يتطلب عكس هذا.. قست عيناها الزرقاوان القاتمتان بغية الدفاع، وارتفع حاجبا تيرنت، ثم ابتسم لتنتقل عيناه من وجهها إلى وجه الرجل الواقف قربها.

أطرقت هيلين مرتجفة.. كانت أصابعها مطبقة بقوة على الكريستال الهش حتى ابيضت أصابعها.. أحست بتوتر حتى عاودت السيدة بايتون الكلام مرة أخرى موجهة دفّة الحديث إلى أشياء عامة.

ثم استرخت يستحوذ عليها التفكُّر، كانت مضيفتها ترسم الحدود وهي تقوم بهذا بكل براعة ومكر.. كانت السيدة بايتون توضح بأدل من الوضوح نفسه أنها هي وولداها يتحركون في دائرة اجتماعية بعيدة كل البعد عن بيئة هيلين وكأنما يعيشون على القمر.

مرة أخرى، وعلى الرغم مما تحاول المرأة العجوز أن تفعله وجدت أنها تتعاطف معها. الواضح أنها ترى في هيلين تهديداً.. ومع أنها متكبرة بائسة إلا أنها كانت تقاتل من أجل سعادة ابنها بالطريقة الوحيدة التي تعرفها.

فكرت هيلين: يجب أن أشعر بالغرور.. خاصة وهي متأكدة أن ما تشعر به تجاه بايتون ما يزال حياً.

انتقلت نظرتها إليه، ثم إلى أخيه على مضض.. إلى جانب تيرنت، بدا آغنوس صغيراً جداً.. ومن السهل قراءته.

كان صوت السيدة بايتون عذباً:

ـ لدينا أصدقاء أعزاء يملكون شقة في السيرفرز، لا أعتقد أنك تعرفينهم. عائلة كاتلرز.. ابنتهم داليا هي التي أقنعت آغنوس بقضاء عطلته في السيرفرز.. وقد أقرضوه شقتهم، ألم يكن ذلك

كرماً منهم؟

ردت هيلين فيما كان آغنوس يتحرك بقلق:

ـ نعم إنه لكرم.. لا أنا لا أعرفهم.. فسيرفرز مكتظة بأناس يأتون لتمضية العطل.

التقت عيناها بطريقة ما عيني تيرنت، فرأت وميضهما الفضي ولكنها أملت عدم رؤية شيء من خلاله.. لن تسمح له أن يرهبها كما لن تسمح لأمه أن ترهبها بثرثرتها الفارغة.

تابعت السيدة بايتون الموضوع وبدا أن هناك نقصاناً مدهشاً لسعة الحيلة:

ـ داليا حبيبة، أنا واثقة أنها ستعجبك هيلين!

أتراهنين؟

ولكن آغنوس تحرك ثانية منتفضاً بحدة، قبل أن يسأل بفظاظة: أهي قادمة؟

ابتسمت أمه ابتسامة من يتسامح مع طفل:

ـ بالتأكيد حبيبي. ألم أخبرك؟.. ستقضي ما يقارب الشهر معنا آغنوس، فتذكر هذا! لقد وصلت رسالتها بعد عودتك من اوستراليا.

ـ لا.. لا أذكر.

لكنه أخفى توتره وغضبه المتصاعد بارتشاف كوب العصير، ثم بالتحديق إلى الكوب الفارغ باكتئاب.

غضّت هيلين طرفها.. فقد لاحظت الابتسامة الساخرة التي لوت فم تيرنت عندما قالت أمه الكلمات الأخيرة. إنها تكذب وهو يعرف هذا.. لكن الواضح أن لداليا كاتلرز دوراً في حياة آغنوس، أو أن أمه تريد لها هذا الدور، وليست أرفع من أن تكذب لتحقق مأربها.. كانت السيدة بايتون قاسية عديمة الرحمة كابنها البكر.

قطع صوت تيرنت الجريء على هيلين أفكارها:

ـ هل أصبّ لك كوب عصير آخر، آنسة كراو؟

ـ لا . . شكراً لك .

قال آغنوس بصوت يشوبه شيء من الضحك :

ـ آه! حباً بالله ، نادها هيلين!

نظر تيرنت إليها وعيناه تومضان من تحت رموشه . ترددت هيلين . . فهذا الحاجز الواهي أفضل من لا شيء . ولكن بسبب مراقبة آغنوس لها لم تستطع إلا أن تؤيد طلبه .

فأجاب : إذن ، نادني تيرنت .

وكان يسخر منها . . استطاعت أن تشعر بالذبذبات المشحونة في الجو بينهما . . أخافها هذا العداء ، ولكن في الوقت ذاته أبهجها وجعلها تعي بكل عصب من أعصابها وبكل خلية من خلاياها بالأحاسيس الزاحفة إلى بشرتها .

أحست بالرَّاحة حين أعلنت السيدة دورنت أن العشاء جاهز . . فإن إحساسها الشديد بتيرنت خطير . . فكرت ساخرة : إنها الجاذبية الحيوانية . . رافقها آغنوس إلى غرفة الطعام الكبيرة . . الأخوان معاً بمتلكانها ، تلك الجاذبية التي لا تقاوم . . ولكنها في آغنوس كانت صورة بكماء عن أخيه . ستحاول في وقت ما سبر غور ماهية الشيء الذي يجذبها بهذه القوة إلى تيرنت فهي تراه ويا للغرابة في كل مكان تنظر إليه .

كان الطعام ممتازاً وقد قدِّم بطريقة لائقة ، ولكن هيلين أكلته بلا شهية وهي واثقة أنها خيبت أمل مضيفتها لأنها أحسنت استخدام السكاكين والشوك المناسبة .

يا لها من امرأة سخيفة! . . لا شك أنها تدرك بأن الفتاة الصغيرة الموظفة في مكتب تتناول طعامها هذه الأيام في مطاعم جيدة! إنها تنظر إلى العالم بمنظار من كان يعيش في القرن الماضي .

خلف السيدة ، كانت لوحة لشخص يحدق إلى الجميع . . للوهلة الأولى ظنت هيلين أن فيه شبهاً من تيرنت ، ولكن بعدما

أمعنت النظر اقتنعت بالعكس. لقد رسمها رسام ماهر استطاع إظهار ملامحه العنيدة المتفوقة، والشخصية المتسلطة. الواضح أنه أحد أسلاف العائلة، فتمشت عيناها في خلفية الصورة فاكتشفت الصخرة العلامة بارزة بإخلاص.. إن صاحب هذه الصورة، كائناً من يكون قد عاش هنا.. ودفعها الفضول إلى طرح سؤال عن الوقت الذي سكنت فيه عائلتهم تي ناوي.

ولكن آغنوس هز كتفيه مدعياً عدم المعرفة:

ـ اسألي تيرنت إنه الخبير بتاريخ العائلة.

هكذا اضطرت هيلين إلى النظر إلى حيث يجلس تيرنت. لم تكن تعابير وجهه تفضح ما يدور في رأسه، ومن الصعب رؤية مشاعره، هذا إن كان يشعر بشيء.. التفتت إلى السيدة بايتون متنهدة تطرح سؤالاً أجابت عنه:

ـ منذ أكثر من مئة وخمسين سنة، إنه وقت طويل.

ردت هيلين بأدب: «بكل تأكيد طويل.. خاصة بالنسبة لبلاد حديثة».

مما تعرفه عن عائلة والدها أنها كانت مقيمة في منطقة ديڤون أكثر من ثلاثمائة سنة.. كانوا فلاحين جذورهم عميقة في الأرض التي كانت تطعمهم.

ارتفعت أهداب الرجل السوداء وأرسل إليها نظرة عميقة طويلة جعلت أسنانها تصطك.. اشتعلت حرارة غريبة في بشرتها. لم تكن احمراراً بل ردة فعل دفاعية.. أجبرت نفسها على الابتسام له متسائلة.

ـ لا شك أن ذلك حدث في زمن رواد الجزيرة الأوائل.

ضحكت السيدة بايتون:

ـ إن عائلتي وعائلة بايتون من المستعمرين الأوائل.. لكن عائلتي كانت بليدة الحس. يعجبني ما سمعت عن أول تيرنت

بايتون . . كان قرصاناً حقيقياً .

ـ حقيقياً؟

رد تيرنت على حاجبي هيلين المرتفعين بابتسامة :

ـ لا . . ليس حقيقياً . . ولكنه كان بكل تأكيد الابن الضال في العائلة . . هرب من مزرعة أبيه في انكلترا بعد إغوائه ابنة نبيل مزرعة أخرى . . في وقت لاحق اختفت بدورها وظهرت هنا كزوجة له . . في السنوات الفاصلة أمضى ردحاً من الوقت في أوستراليا قبل الإبحار في بحر تسمان ليقيم مع القبيلة التي كانت تملك يومذاك «تي ناوي» والمنطقة المحيطة بها . . وأعطي قلب المزرعة . . وقد احتاج إلى ثلاثين عاماً ليحصل على ما تبقى .

قالت هيلين وابتسامتها البطيئة تنير وجهها :

ـ يبدو لي وغداً فاتناً .

أثرت ابتسامتها في الجميع بطرق مختلفة . مع أن أياً منهم لم يظهر تأثره سوى آغنوس . . لأول مرة استرخى ، رفع ذقنه لينظر إلى أخيه بمزيج من الفخر والمشاكسة . . ونظر تيرنت إليه نظرة لا تكشف عن شيء .

سارعت السيدة بايتون للكلام :

ـ لقد كان قاسياً كالمسمار ومليئاً بالسحر . . ولكنه كان زوجاً طيباً . . كل السجلات تظهر مدى وفائه لزوجتيه .

سألت هيلين : «زوجتان في وقت واحد أم خلفت الواحدة الأخرى؟»

فهمته آغنوس :

ـ ذكية حبيبتي ! فهمتها بمفردك . كانتا زوجتيه في وقت واحد . إحداهما حفيدة زعيم القبيلة المحلية ، كان والدها صائد حيتان أمريكي . . ولقد حصل سلفنا المبجل على تي ناوي عن طريقها .

تراقصت عينا هيلين باستجابة سريعة :

ـ يبدو ساحراً . . كيف استطاع المحافظة على النظام؟

أجاب تيرنت: «بالسوط . . إذا كانت أسطورة العائلة مبنية على الحقيقة».

وبدا أنه يؤيد طريقة سلفه . . في قسمات وجهه الوسيمة الكثير من السخرية.

ـ كان لكل زوجة ولد . . وبعد جيلين من هذا، تزوج الورثة من كل جانب ووحدا العائلة مجدداً.

ـ تصرف حكيم. لا شك أنه كان رجلاً مميزاً . . لا يسع المرء إلا أن يبدي إعجابه بقوة تحمله.

قالت السيدة بايتون بكياسة جعلتها تعود إلى إنسانيتها قليلاً:

ـ عليك أن تطلبي من تيرنت أن يقص عليك بعض القصص عنه. إنه على الأرجح من النوع الذي لا يمكن للمرء أن يسمح بوجوده في ممتلكاته في العصر الحالي . . ولأننا بعيدون عن مناله نتمتع بأخباره.

كانت هيلين مستعدة للرهان على أنه حي يرزق بوجود تيرنت . . فهو مثل الرجل الذي في الصورة يملك إثارة تثير الاضطراب . . ولا يحتاج المرء إلى مخيلة نشطة، ليتصوره أكثر من قادر على المساواة بين زوجتين، يسكت أي شجار بالسوط البارد، وبمجرد نظرته.

لكن هذه الأفكار خطيرة لذا أبعدتها عن تفكيرها، مسرورة بانتهاء العشاء . . مع شيء من الحظ سيغادر تيرنت الغرفة ليجد أعمالاً مكتبية يعمل على إنهائها.

لكنه ذهب معهم إلى غرفة الجلوس. وأخذ آغنوس يضع الحطب في المدفأة، وأدارت أمه التلفزيون، أما تيرنت فالتقط كتاباً وجلس في مقعد على مسافة بعيدة.

جذب آغنوس هيلين إلى جانبه على الأريكة واضعاً يده بتملك

فوق يدها وراح ينظر إلى الشاشة الصغيرة. كانت الرواية الهزلية ذكية والمشاهد مسلية، ولكنها كانت تلتقط بطرف عينها الحركة السريعة للصفحات التي يقرأها تيرنت.. إن كان يقرأ حقاً فهو سريع كثيراً في القراءة.

وفيما كانت تمعن النظر فيه، رفع رأسه.. وما إن تلاقت عيونهما حتى توهج كل شيء على وجهه ولكن مهما كان هذا فسرعان ما كبته ولكنه أسر نظرتها وهو يبتسم ابتسامة أعطت وجهه نظرة شريرة.. سرعان ما أشاحت هيلين بوجهها.

لامس لسانها فجأة شفتين جافتين.. فقد كانت تحس بعينيه عليها وتساءلت عما إذا كان يشعر بتأثير نظرتها فيه.

همس لها آغنوس وهو يضغط على أصابعها المتوترة: «استرخي».

لكن ذلك مستحيل، فهي تشعر بالتوتر الكهربائي على وجهها، مما يعني أن تيرنت لم يعد إلى كتابه.

ما إن انتهى البرنامج المضحك في التلفزيون حتى التفت آغنوس إليها:

ـ أعتقد أنك متعبة.. أترغبين في النوم باكراً؟

أجابت بصوت هامس:

ـ يجب أن نتكلم آغنوس.

هز رأسه وهو غير قادر على إخفاء القلق الذي أثارته كلماتها.

ـ أجل بكل تأكيد.. تعالي.

وفيما كانا يغلقان الباب خلفهما سمعت صوت السيدة بايتون يعلو بالكلام.. فأحست ببرود مفاجيء وارتجفت. فقال آغنوس وهو يدس يده حول خصرها:

ـ حبيبتي المسكينة، حبيبتي المسكينة ترتعش من البرد. عندما عدت من «سيرڤرز» خلت أنني لن أشعر بالدفء مرة أخرى!

ـ ثمة فرق.

ولم تستطع أن تقول له إن لا شأن لارتعاشها بالحرارة.

أدخلها إلى غرفة مكتظة برفوف الكتب، في هذه الغرفة أريكة جلدية ومقاعد مدثرة بقماش أخضر وأحمر.

سألها بصوت أجش وهو يشدها إليه:

ـ والآن.. كيف حالك؟ يا إلهي كم اشتقت إليك! مررت بالجحيم...

وبادلته العناق لأنه الشخص الوحيد الذي يحبها على هذه الأرض.

تنهّد: هكذا أفضل.. لماذا تبكين عزيزتي؟ ما الأمر؟

ـ لا أبكي.. لماذا لم تقل لي كيف هي الأمور هنا؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنت تعرف.. لا يريدني أخوك وأمّك هنا.. ولو عرفت..

قاطعها: «لما جئت.. هذا هو السبب أيتها الحمقاء».

ـ لكن لماذا؟ لماذا لا أعجبهما؟

ـ أوه. اللعنة.. عرفت أنك ستغضبين حبي.. إنما كان عليّ إقناعك بالمجيء إلى هنا. اجلسي، ودعيني أحضنك وأنا أشرح السبب لك.

ـ من الأفضل أن يكون سبباً منطقياً.

قال: «أنا آسف.. آسف.. لكن لا يمكنك لوم تيرنت وأمي.. أعرف أنهما يعاملانك بجفاء».

ـ بجفاء؟

ـ حسناً.. إنهما فظان لعينان معك.. أمي تقوم بتمثيلها الكبير اللعين، وتيرنت يظهر لك كم بمقدوره أن يكون مضجراً.. وأعرف كيف يمكن أن يكون متكبراً.. ولكنهما تلقيا صدمة كبيرة عندما أخبرتهما بأنني سأتزوجك.

ـ ماذا قلت؟

أدارت رأسها إليه:

ـ آغنوس كيف استطعت قول هذا؟ لقد اتفقنا..

ـ أوه.. أعرف أنك قلت إن علينا التعرف إلى بعضنا بعضاً أكثر. ولكنك يا هيلين شعرت بما شعرت به. لقد وقعت في حبي.. أعرف هذا.

ومض الغضب في أعماق عينيها:

ـ وكيف تعرف؟ آغنوس.. نحن لا نعرف بعضنا بعضاً بما فيه الكفاية.

ـ أجل.. سبق أن قلت هذا، أعرف. ولكنني منذ رأيتك قلت لنفسي، ها هي.. إنك بالضبط ما وعدت به نفسي دائماً. عرفتك يا حبيبتي، وأحببتك.

هزت رأسها، والغضب يتلاشى أمام مشاعره، ثم تنهدت:

ـ أوه.. لكن، ألا ترى.. أنا لا أعرف! كل ما أعرفه أنني معجبة بك، وأن لدينا أشياء كثيرة مشتركة، ولكنني غير واثقة! أنا لن أتزوج حتى أكون متأكدة كل التأكد من مشاعري.

نظرت إلى وجهه الدهش:

ـ أرفض أن أتزوج ثم أكتشف أنني أخطأت.. كما حدث لأمي.. لا مجال.. سيكون الزواج بالنسبة لي زواجاً أبدياً، لا مجال للطلاق فيه أو التردد.

ـ حسناً. حسناً. أفهم هذا.. والله يعلم أنني أريده مثلك.. إنما عليك أن تصدقي أن مشاعري صادقة.

ـ كيف تتأكد ولم تتعد مُدّة تعارفنا ثلاثة أسابيع؟

تنهد، ورفع يديها إلى فمه، على وجهه تعابير تستعيد شيئاً من المرح الذي أغرقها به في سيرفرز.

ـ هيلين.. لماذا لا تتركين الأمر يسير على هواه؟ ما إن يدرك

تيرنت وأمي أنك لا تسعين وراء المال حتى يحباك. . أعرف هذا.

تنهدت هيلين بقلق، وبدا لها أن دهراً مرّ منذ رحيلها عن بريزبن.

ـ لماذا أخبرتهما أننا مخطوبان؟ يجب أن أعرف آغنوس. . وإلا رحلت غداً.

كان ممسكاً يديها، فاشتدت أصابعه عليها وقال بغضب: داليا كاتلرز.

ـ حسناً؟

ـ طالما أملت أمي أنني وداليا. . أننا. . أوه. . لا شك أنك فهمت! لقد جعلت الأمر واضحاً! تعجبني داليا، فهي طفلة لطيفة ولكنني لا أريد الزواج بها.

ـ فهمت.

ـ وهل فهمت؟ أشك في هذا، فلا فكرة عندك عما كان عليه الأمر لسنة خلت. . أينما أدرت وجهي وجدتها أمامي وإن عبثت مع فتاة أخرى نظرت إليّ مؤنبة وبانت نظرة الحزن على وجهها. يا الله! هذا أكثر من قدرتي على التحمل! لقد أتقنت عملها حتى باتت تدعى إلى كل مكان على أنها خطيبتي فكان أن شعرت بأنني أدفع دفعاً نحو الزواج!

ـ لماذا لا تتباحث الأمر مع الفتاة. . قل لها إنها تعجبك ليس إلا.

بدا على آغنوس كل دلائل الرجل المحبط، وأخذ يهز كتفيه وكأن ياقته ضيقة كثيراً. ثم قال:

ـ أوه. . لأنني. . حسناً. . لأن الأمر محرج لعين. . تعجبني، إنها جميلة وصغيرة، وتحبني. وأنا لا أريد أن أؤلمها. . ليتها تتركني وشأني فقط. وهاهي أمي الآن قد دعتها للإقامة هنا!

استدار ينظر إليها نظرة اتهام، وكأن لها ضلعاً في الدعوة:

ـ لن أستطيع الحراك هنا بلا التعثر بها . . لقد اكتفيت! لهذا قلت . . تركت تيرنت وأمي يعتقدان أننا مخطوبان .

عبست هيلين . . لقد فهمت كل شيء . . إنه لا يحبها بالتأكيد ولا يحب داليا المسكينة . . ولكنه بسبب عناد أمه أصبح مستعداً لاستخدامها درعاً ضد زواج ليس مستعداً له .

وماذا عنها؟

أدركت فجأة أن ما شعرت به نحو آغنوس تبخر وكأنه فقاقيع صابون . . كان غرامهما غرام عطلة . لقد كان شعوراً جميلاً . . وها هو قد مات . . وهذا كل شيء .

قالت بغير ضغينة : «أنت أحمق!»

ابتسم وعاد يجلس إلى جانبها :

ـ وأنت حبيبة . حبيبة وغالية .

ـ لكنني ما زلت غاضبة . لا يحق لك أن تجرني إلى هذا الموقف . .

ـ لكنك لن تخبريهما بأننا لسنا مخطوبين!

ـ لا . . بل ستخبرهما أنت .

احتاج إلى عشرين دقيقة من المداهنة حتى أذعنت على مضض . كان جزء خبيث فيها مسروراً بفكرة إغاظة السيدة بايتون وتيرنت . . فمن المرضي لها أن تجعلهما يعانيان قليلاً . . ولكن السبب الرئيسي للموافقة على الخداع هو الولاء لآغنوس . . وسترى بأم عينها إذا كان سيتمكن من الصمود أمام الضغط الذي يتعرض إليه . . ربما تكون داليا الخيار الصالح له ولكن عليه هو اتخاذ القرار .

تنهدت عابسة . . لو أدرك أخوه وأمه أنهم هذه المرة دفعوا آغنوس بعيداً لخففوا الضغط في المستقبل، ولسمحوا له باتخاذ قراراته .

قالت غاضبة : «حسناً» .

ـ أنت حبيبة قلبي.

ضحكت مع أنها تعرف أنه يستغلها. ولكن ليست الغلطة غلطة آغنوس إن كانت أمه متسلطة وأخوه رجلاً يجذب العين والأحاسيس.. وليس غريباً أن يكون آغنوس في الظل! فالسلطة المتفجرة من تيرنت تتغلب على أي رجل آخر وتطغى عليه.. ومع أن هيلين تكرهه بشدة تعرفت إلى القوة التي يمتلكها. ولو تعرض شخص شرير لها أو خطفها رجل من الفضاء الخارجي لتطلعت إلى تيرنت لنجدتها، وليس إلى آغنوس.

قال آغنوس هامساً:

ـ أنا مسرور لأنك غير غاضبة مني.. سنلعب اللعبة على طريقتك.

كان عليها أن تكون غاضبة منه لأنه استخدمها درعاً يحميها من داليا كاتلرز المزعجة.. ولكنها تفهم لماذا هو عاجز إلى هذه الدرجة. لو كان تيرنت في هذا الوضع لحرّر نفسه مما وقف في طريقه ببضع كلمات باردة ولكانت نهاية أية مضايقة.

لكن هيلين تكره التسبب بالألم، وهي معجبة بآغنوس لأنه يشعر بوخز الضمير تجاه الفتاة التي تحبه.. نعم هي لا توافق على أسلوبه في التعامل مع الموقف، ولكن ربما يرى آغنوس الموقف بوضوح أكثر منها.. وربما من الأفضل إقناع داليا بأنه وقع في حب فتاة أخرى على أن يعبّر عن ذلك بالعبارات الفظة.

سألته: «لماذا لا تقول لأمك إنك غير مهتم بالزواج بداليا؟ ولا أظنها ترغب في دفعك إلى زواج سيتعسك؟»

قال مغموماً:

ـ لقد قلت لها ذلك مئات المرات ولكنها في كل مرة تتنهد وتقول إن داليا مناسبة لي.. إنها مثل تيرنت، عديمة الرحمة.. لكن أمي لا تفقد أعصابها أبداً.. على أي حال، لن يطول الوقت حتى

يدعنا . . تريد لي أمي السعادة، وحين ترى أنك ستجعلينني سعيداً فستطمئن. وتيرنت لا يهتم فعلاً . . لا يفكر كثيراً في النساء على أي حال، إلا كصديقات.

الواضح أن السيدة بايتون كانت على حق عندما قالت إن آغنوس ينظر إلى الدنيا بمنظار وردي . . فهو لا يرى إلا ما يريد.

قالت وهي تتساءل لماذا عليها أن تشعر تجاه تيرنت بالفضول:

ـ تصفه وكأنه شوفيني متعصب.

ـ آه! إنه كما أصف فعلاً. ولكنه لا ينظر إلى النساء على أنهن أدنى منزلة بل على العكس، فصديقاته جميعهن ذكيات، بل ذكاؤهن حاد مخيف . . ولكنه ليس متحمساً للزواج. قال مرة إن النساء متطلبات وهو غير مستعد لهدر وقته في معالجة شعورهن بعدم الأمان. ولكن، لماذا نتحدث عنه؟ إنه . . .

انفتح الباب في تلك اللحظة ليدخل تيرنت الذي ما إن شاهدهما حتى ابتسم، ثم ارتفع حاجباه وهو يرى تورد وجه هيلين وسرعة انسحابها.

تركها آغنوس قبل أن يقف على قدميه ليواجه أخاه.

ـ هل من مانع؟

رد الأخ بسأم:

ـ أبداً . . أتظن أن بإمكانك العبث معها في مكان آخر؟ لدي عمل أقوم به. أمي في غرفة الجلوس تشاهد التلفزيون . . ولكن سائر أرجاء المنزل فارغة.

يا للقذر الساخر! لماذا ينظر إليها وكأنه يحاول ثقب دماغها بعينيه؟

انحنى آغنوس ليساعد هيلين على الوقوف:

ـ آسف . . قولي ليلة سعيدة لتيرنت حبيبتي.

نظر تيرنت إليها، فبانت تحت أهدابه السوداء نظرة احتقار بارد

كادت تلفح وجهها وعنقها.

قالت بسرعة: «عمت مساء.. تيرنت».

ـ عمت مساء.. هيلين.

ما إن خرجا حتى ضحك آغنوس بصوت منخفض ثم وضع ذراعاً حول كتفيها، واقتادها إلى غرفتها.. لكنها توقفت:

ـ لا.. سأتمنى لأمك ليلة سعيدة.. فأمي التي ربتني كانت تشدد على الأخلاق الحميدة.

تجاهل سخرية ابتسامتها وقال بفتنته وهو يديرها:

ـ حسناً، لقد نجحت في تربيتك.

تبادلتا تحيات المساء ببرود وتهذيب، لكن ابتسامة المرأة العجوز لم تصل إلى عمق عينيها.

عانقها آغنوس أمام غرفتها فقالت له: أنا متعبة.

في الغرفة، قررت أن من الأفضل عدم إبراز الحقيقة. فهي ترى أن السبب الذي جعل آغنوس يظن أنه يحبها هو عدم استسلامها لسحره. ولو أذعنت له لسأل نفسه عما الذي رآه فيها. ولعل حب داليا الواضح هو الذي يجعله جلفاً معها.. إنه الرجل.. الصياد.. حسناً، لمَ لا؟ إن كان آغنوس يستمتع بالملاحقة كما يستمتع أي رجل بالصيد، فالأمر عائد للمرأة التي ترغب فيه.

قالت لنفسها عابسة:

ـ إذن، ظننت أنك تحبينه ثم اكتشفت العكس.. كنت ذكية.. لأنك أردت التأكد قبل إلزام نفسك.

كانت الأغطية مرتدة عن السرير فبان لناظريها الترف الذي تنعم به الآن. ففكرت: استفيدي من الموقف إذن. وابتسمت قليلاً، فهي في هذه الغرفة المثيرة كانت تحس وكأنها ليست في مكانها الصحيح. إن غلالة نومها هذه من صنع يديها فهي ذهبية اللون، عليها تطريز بسيط. فجأة سمعت قرعاً حاداً فنظرت بذعر إلى

الباب.

ثم نادت وهي تسرع لترتدي روبها.

ـ انتظر لحظة.

ولكن الباب انفتح فوراً ودخل تيرنت.. ووقف ينظر إليها بوقاحة.

صاحت به غاضبة، وهي تشد حزام الروب حولها:

ـ قلت لك انتظر.

ـ آسف.. لا.. لا تأمريني بالخروج! فلن أخرج قبل أن نوضح بعض الأمور.

ـ أية أمور؟

قال بهدوء، مشيراً إلى الغرفة المجاورة:

ـ أنا أنام هنا.. ولمعلوماتك أن نومي خفيف.. وأنا عادة أترك باب غرفتي مفتوحاً قليلاً.. لذا إن كنت تتوقعين حضور آغنوس إليك لقضاء بضع ساعات فانسي الأمر.. سأطرده من هنا فوراً!

اشتعل الغضب في أعماق عينيها.. عندما كان يتكلم عقدت ذراعيها على صدرها دفاعاً، ولكنها أنزلتهما وشدت يديها في قبضتين صغيرتين، ثم ردت بصوت ملؤه الازدراء:

ـ لا داعي للقلق.. وليس عليك أن تبقى يقظاً فآغنوس ليس عشيقي.

ارتفع حاجبه الأسود باحتقار، وعدم تصديق:

ـ حقاً؟ لقد أعطاني انطباعاً بأن علاقتكما تتعدى العناق البريء.

ـ إذن هو كاذب.

ـ ربما.

لكنه كان يبتسم، نظرته المتفرسة تهينها.

ـ لكن آغنوس لا يكذب عادة.. وأنا أعرف أنه يملك خبرة كبيرة مع أنه صغير، فهو لا يكاد يبلغ الثانية والعشرين من عمره.

كانت نظرته كحد السوط، وارتفعت عيناه إلى وجهها الأبيض من الشحوب والمليء بالكبرياء..

تقدم نحوها وقال بلطف:

ـ وأنت.. جميلة جداً.

صاحت بها كل ذرة من غرائزها أن تهرب.. أن تستدير قبل أن يصل التهديد الذي يمثله إليها.. ولكنها لم تستطع الحراك.

سألته بصوت متحشرج: وكم عمرك أنت؟

ـ تسعة وعشرون. نعم، لقد اكتسبت الكثير من الخبرة. وهذا أمر حتمي لمن يملك المال..

سرعان ما أصبح قريباً منها.. لامست إصبعه أذنها ودفعت يده خصلة شعر سوداء حريرية إلى الوراء.. انتفضت من لمسة إصبعه وارتدَّ رأسها جانبياً وإلى الوراء.. شقت قشعريرة باردة طريقها عبر أعصابها.. وأحست بعقلها هشاً ومغلقاً، يفكر فقط في المعلومات التي توصلها إليه أحاسيسها بدون تفكير.

أبعد يده ولكنها ظلت مسمرة خاضعة أمامه:

ـ جميلة.. جمالك غريب، مثير للاضطراب، إنك قادرة على إغواء قديس.. وليس آغنوس بقديس، ولا أنا.

صعب عليها التركيز في الوقت الذي كانت فيه عيناها تقولان لعقلها إن كتفيه عريضتين مستقيمتين، وإن في جسده الرياضي ما يشير إلى استخدامه الكثير من ضبط النفس. كانت رائحة عطره تدغدغ أنفها وتزيد من تركيز الأحاسيس في كيانها.. كان صوته العميق يتلاعب بأطراف أعصابها، ودون أن ترفع عينيها عرفت أنه رغم سوء ظنه بها متأثر بها كتأثرها به تماماً.

فكرت: يجب.. أن.. لا أفعل هذا..

أجبرت نفسها على التغلب على ضعفها.. عضت شفتها حتى انجلى الألم من عقلها، ثم تراجعت إلى الوراء وعقدت ذراعيها على

صدرها مرة أخرى . .

قالت ببرود وسخرية :

ـ حسن جداً . . بما أنك حذرتني الآن فمن الأفضل أن تخرج ، فأنا متعبة حقاً !

آلمها أن ترفع نظرها إلى وجهه ، وأن ترى بنية عظامه الرائعة بارزة فجأة فوقها . . للحظة فقط ، شيء بشع لمع في أعماق عينيه . . ثم ابتسم وقال بلطف :

ـ نوماً هنيئاً هيلين .

* * *

٤ ـ الاسم الآخر للجنون

نامت ويا للدهشة نوماً عميقاً ولم تستيقظ إلا على قرع آخر على الباب في الصباح. ولكن القارع هذه المرة كانت السيدة دورنت التي جلبت لها صينية عليها فطور لذيذ.

احتجت هيلين وهي تتثاءب:

ـ أوه.. إنما يجب ألا تفعلي هذا. سأنهض من السرير.. يجب ألاّ تزعجي نفسك هكذا.

ـ لأنك أمضيت يوماً شاقاً بالأمس فكرت السيدة بايتون أن نعطيك وقتاً أطول للنوم.

وضعت مدبرة المنزل الصينية على ركبتي هيلين.. لم تكن تبتسم لكنها كانت تبدو أكثر وداً من اليوم السابق.. هكذا ابتسمت هيلين لها بحرارة وقالت:

ـ يبدو الفطور لذيذاً، أخبريني أيحصل الرجلين على مثل هذا البيض المميز الطهو أم خصص لي وحدي؟

ـ خصص لك وللسيدة بايتون.. فالرجلان يتناولان وجبة طعام دسمة في الصباح بل في كل وجبة لأنهما يعملان بجد.

فتحت الستائر فتسللت أشعة الشمس، كان هناك شرفة مسقوفة من حجر رملي تحده زهور المرغريتا الربيعية ذات الألوان البيضاء والوردية والذهبية، من ورائها مرجة خضراء ممتدة تظللها الأشجار.

قالت السيدة دورنت وهي تلحق بنظرات هيلين:

ـ هذه طبيعتنا المحلية . . جميلة، أليس كذلك؟

ـ جميلة فعلاً . . ولكن نيوزيلندة جميلة كلها أو على الأقل القدر اليسير الذي رأيته منها . . كلها خضراء مزهرة، وصغيرة .

ـ لكل بلد جمالها . . أنا، أنا أحب المحلات في سيدني وملبورن!

ابتسمت هيلين موافقة :

ـ هذا صحيح . . ومن ذا الذي لا يحبها؟

ـ سأعود لآخذ الصينية . .

هزت هيلين رأسها تقاطعها :

ـ لا . . لن تفعلي هذا! سأجد طريقي إلى المطبخ . لا أريد أن أكون عبئاً إضافياً .

وفيما كانت تأكل وجدت هيلين أنها تأمل أن تكون عطلتها ممتعة رغم كل شيء . . إن ما يحيط بالمكان جميل بما فيه الكفاية لإسعاد عينيها . . وإن استطاعت شق طريق حذر في حقل الألغام الذي وجدت نفسها فيه فقد تستمتع بعطلتها هذه . تحمد الله لأنها كانت متهورة . . فهي لم تعترف حتى لنفسها كم أرادت أن تحب آغنوس . . فتهورها هذا جعلها تتحرر منه وجعلها تتعلم شيئاً من الموقف .

كيف يعيش الأثرياء؟ فكرت في المرح . . فمن غير المحتمل أبداً أن تدور في مثل هذه الدائرة مرة أخرى . لذا من الأفضل أن تستخلص قدر ما تستطيع من انطباعات وهي هنا، إن المال والمنزل وسكانه يكشفان كل هذا .

نهضت هيلين من السرير ضاحكة واتجهت إلى الحمام . بعد نصف ساعة كانت مرتدية سروالاً سميكاً وبلوزة صوفية، ما إن أنهت ارتداء ملابسها حتى عمدت إلى توضيب السرير وإزالة آثار استخدامها للغرفتين، ثم فتحت الأبواب الزجاجية باتجاه الشرفة .

سرعان ما دخلت قطة كبيرة إلى الغرفة تموء، فابتسمت لها هيلين وانحنت لتلاعبها.

قالت لها السيدة دورنت بعد دقائق في المطبخ:

ـ هذا هو تومي.. إنه غير واثق أكان كلباً أم بشراً.

ضحكت هيلين وراحت تراقب مدبرة المنزل وهي تضع الصحون في الغسالة الآلية:

ـ لكنه يبدو لي قطاً!

ـ إنه يقضي معظم وقته في الحظائر يساعد الكلاب في رعاية الخراف.. ويعتقد أن له كل المزايا التي لنا، بما فيها الاستحمام في مغطسي.

ضحكت هيلين، في الوقت الذي انفتح فيه الباب. وتعالى صوت رجولي:

ـ أوه.. ها أنت هنا.. أتحبين مرافقتي في نزهة بالسيارة؟ سأتفقد المزرعة، وفكرت أمي أن أعرفك إلى المكان.

لكن جسمها اقشعر لمجرد التفكير بالجلوس مرة أخرى مع تيرنت في سيارة. فبعدما جرى ليلة أمس لا تريد رؤيته ثانية. مع ذلك، وبعد تردد، قبلت.. فقال بنفاد صبر:

ـ تعالي إذن.. هل حضرت الإبريق الحافظ للحرارة جانيت؟

كان اللاندروفر هو ما ينتظرهما وكان في المقعد الخلفي منه كلبان مثيران للاهتمام..

قال لها آمراً:

ـ اذهبي وأحضري سترة.. فالريح شديدة.

كان يرتدي سروالاً من الجينز وقميصاً متقاطع الخطوط.. بدا مثالاً للرجولة.. وكرهت هيلين تأثير جاذبيته فيها، تذكري أنه يظنك صائدة ثروات رخيصة!

لكن صعب عليها أن تتذكر هذا، فما إن جلست قربه حتى

انطلق ليسحرها . . وكان كل شيء جديداً من حولها بدءاً من ثيران الوالد في الحظيرة قرب المنزل وصولاً إلى العجول الصغيرة البيضاء الوجه وأمّاتها . . بعد وقت قصير نسيت قلقها . . كانت خراف سخيفة جميلة ذات قوائم نحيلة ترعى في مرعى خلف مرعى . . أجاب تيرنت على أسئلتها بصبر شارحاً أسرار الرعي والعلف، وجز الصوف .

كان هناك أيضاً قطيع من ماعز «انغورا» . . وهي مخلوقات تسر النظر .

استقبلهما لدى وصولهما جديان فاتنة . انحنت تتلمس رأساً صغيراً :

ـ أوه . . أوه . . ما أجملها!

ووجدت آخراً يمسح رأسه بركبتها، وآخران يتدافعان بلهفة ليجدا مكاناً لهما . .

قال تيرنت بشيء من الاختصار :

ـ هي جزء من برنامج التنويع . . فالماعز تأكل أشياء لا تلمسها الخراف . الأشواك والوزال، العليق، والأعشاب الضارة من كل نوع . . لدينا قطيع للحليب فقط . . فثمة سوق جيدة لحليب الماعز في نيوزيلند، وللحمها .

هزت هيلين رأسها، مدركة للمرة الأولى أن على المزارع أن يكون وسيطاً تجارياً، وصاحب أرض في آن معاً .

سرعان ما كان عليهما أن يتركا الماعز الجميل خلفهما ليتجها صعوداً على طريق معبدة بشكل جيد . . واحد من شبكة طرقات تلف المزرعة . . أثناء صعودهما راح البحر يحتل المنظر بالتدريج حتى أوقف تيرنت اللاندروڤر، وقال ببساطة : ها هو .

تراءى البحر أمامهما وتراقصت مياهه تحت أشعة الشمس . . وبعيداً بعيداً تدلت ما بين حدود البحر والسماء جزر زرقاء رائعة إلى

الشمال، كانت الأرض منقوشة بسلسلة من جبال زرقاء وقرمزية تمتد على مدى البصر.

ـ تكاد لا تكون جبالاً فهي لا ترتفع إلا ألف قدم أو يزيد.

ـ إنها جبال بالنسبة لي، مع أن في سيرفرز جبال يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم.

ضحك يمازحها وقد نسي العداء:

ـ نسميها في نيوزيلند تلالاً.. وعندما يبلغ ارتفاعها ثلاثة أو أربعة آلاف قدم نطلق عليها اسم جبل.

ـ كم ترتفع تي ناوي؟ أقصد التلة الحقيقية.

ـ ألف وخمسمائة قدم.

كانا يقفان على أطرافها.. من فوقهما كانت ترتفع أكثر فأكثر أطرافها العليا مغشاة بضباب وبغيم بارد. من تحت كانت الأرض ممتدة في أخاديد تحفها الأشواك المرتفعة.

ملأت هيلين رئتيها بالهواء المنعش البارد المشبع برائحة النباتات الندية، ثم قالت من بين أنفاسها:

ـ إنها جميلة. لها مهابة ورهبة.. هل مررنا فعلاً بتلك الطريق الضيقة الطويلة؟

ـ أجل.. بالفعل.. ألا تخافين من المرتفعات؟

ـ الواضح أنني لا أخافها.. لماذا؟

ـ قلة من الناس يجرؤون على سلوك هذا الطريق.. وقد اضطررت إلى إبعاد بعضهم.

ـ ألهذا جئت بي إلى هنا؟

رفع حاجباً بتساؤل:

ـ وما الذي يدعوني إلى إخافتك؟

ـ لا شيء أبداً.. أين هو آغنوس اليوم؟

ـ تذكرته فجأة؟ إنه يصلح سياجاً هناك.. يجب أن تتمكني من

رؤيته . . لا . . ليس هنا . بل هناك . .

وقف خلفها ليوجه وجهها في الاتجاه الصحيح . . كانت ذراعه تدفع خدها . انقطعت أنفاسها فجأة لأنها أحست بضربات قلبه ثابتة على كتفها . وأحست كذلك أن نبضات قلبه تسارعت ما إن تسارعت نبضات قلبها .

أخيراً قالت بفظاظة وهي تبتعد عنه :

ـ أجل . . أستطيع رؤيته .

ـ صحيح ؟

كان على حق في أن يشك لأنها لم تكن قادرة على رؤية سوى نفسها ضائعة بين ذراعيه . . فرفرفت عينيها بقوة وتمكنت من محو الصورة . . لكن اللون الذي زحف إلى بشرتها لم يسهل السيطرة عليه .

قال بصوت ساخر : «لماذا هيلين . . لماذا؟»

وأحست بيديه على كتفيها يديرها إليه .

ربما ما كان عليها المقاومة . . لكن ارتدادها الغريزي كان بمثابة مهماز له . . ففي اللحظة التالية كانت بين ذراعيه . كان عناقاً قاسياً . .

أرجعت هيلين رأسها إلى الوراء وهي تشعر بالخجل والخزي . لقد نسيت للحظات أمر آغنوس .

تمتمت : «لا . . آغنوس» .

ـ آه ! اللعنة على آغنوس !

لكنها بعد ذلك العناق العاصف لم تعد قادرة على المقاومة . . في الواقع لم تكن تعي ما يحدث لها .

كانت ترتعش كورقة في مهب الريح . . فجأة عرفت ما يجري . . لقد ابتعد كثيراً عن السيطرة على نفسه . . وإن لم توقفه فسيجعل هذا الغريب نفسه سيداً عليها . يجب أن تضع حداً لهذا كله إنما بدون إغضابه .

أرخت يديها عن كتفيه، وأنزلتهما ببطء إلى صدره العريض، وانتظرت لحظة غفلة لتشد نفسها من عناقه.. لم يحاول منعها، فهو مثلها كان يسحب نفساً عميقاً ويقاوم لاستعادة سيطرته على نفسه.

قال بلهجة صارمة:

ـ الآن.. إذن.. ماذا ستفعلين؟

ارتدت عنه وراحت تشد سترتها حولها بحركة سريعة متوترة:

لا شيء!

ـ هل ستتظاهرين أن هذا لم يحدث؟

ـ أجل.

يجب أن تنسى كل المشاعر المباغتة التي اشتعلت بينهما في أول عناق.

قال بتركيز ساخر: «حسناً.. لربما استطعت أن تفعلي هذا.. لكنني سأكون ملعوناً إن استطعت.. لقد أردتني كما أردتك هيلين».

ـ أوه.. ألا يمكن ترك الأمر هكذا؟ لا شك أنني.. أنني كنت مجنونة!

استعاد نفسه بأسرع منها، فقد قال بصوت بارد:

ـ إنه جنون معروف.. يسميه معظم الناس تجاذباً.. وأنت عرفته منذ وقع بصرك عليّ وهذا ما حدث لي تماماً.

أشارت رافضة بسرعة وأحنت كتفيها:

ـ لا! لا.. لم يكن.. أنا لم...

ـ حاولي إقناع نفسك إنما لا تحاولي إقناعي.. عرفت منذ وقع بصري عليك أنك تريدينني. ولا أستغرب أن يجد آغنوس الإجازة ممتعة إلى هذا الحد! هل أقول له إنك تتجاوبين مع أي رجل؟

ارتدت بعنف رافعة يدها في الهواء لتصفع اللؤم على وجهه، لكنه أمسك بها.. كان القناع الرهيب على وجهه بارداً وراحت

أصابعه تشتد حول رسغها حتى تألمت.

ـ لا تكوني سخيفة.

ارتجفت.. لكنها سرعان ما ركزت كل إرادتها على المقاومة. إنما ليس مقاومته بل مقاومة نفسها.. قال ساخراً وهو يتركها:

ـ استمتعي بعطلتك هيلين.. لكن لا تظني أبداً أنها عطلة ستدوم العمر كله. لن يتألم أحد.. وإن كنت لا ترغبين أن ينتهي بك المطاف إليّ فابتعدي عن طريقي.

نزلا بصمت التل من الجهة الأخرى نحو وديان واسعة والوادي الأول يحتوي على المنزل الرئيسي في تي ناوي، والثاني يضم أبنية مزارع الألبان، والثالث مجرد صخور بارزة ترتفع مئة قدم. كان هذا ما أخبرها به تيرنت بسخرية وهما يعودان إلى الطريق الرئيسية للمقاطعة التي لم تكن في حالة أفضل من حال طرقات المزرعة.

بعد مسافة قصيرة تركا الطريق الرئيسية باتجاه حظائر تصطف على الجانب الآخر من الطريق.

أوقف تيرنت اللاندروفر في ممر طويل ضيق بدا وكأنه مخزن للتبن.

ـ هذا جزء هام من المزرعة.. إنه مدرج المطار. تتلقى تي ناوي السماد من هنا.. ويحتوي المبنى على مخزون كبير من السماد.. أترافقينني؟

ـ كم تبعد الصخور؟

ـ وراء الحظائر. كوني حذرة، إنها شديدة الانحدار.

وهكذا كانت.. ثلاثمائة قدم من الصخر الأحمر، مسافة بعيدة شديدة الانحدار نحو البحر الذي كان يهدر عند قاعدتها. نظرة واحدة إلى الأسفل جعلت هيلين ممتنة للأسلاك الشائكة التي تمنع الحيوانات من السقوط.. إلى الأسفل، كان البحر يبرق كالوعد.. لا شك أنه صيفاً يفقد شعاع الشتاء البارد، ويصبح أعمق وأهدأ

لوناً. . لكنها لن ترى هذا أبداً.

صاح نورس بحر وكأنه روح ضائعة. . إنها كالنورس، روح ضائعة. . فطالما تفاخرت بعقلها الراجح. . مع ذلك تصرفت كالبلهاء فوق جبل تي ناوي رامية احترامها لشخصيتها عرض الحائط، بتصرفها المجنون غير العادي منها. ولقد صدمت وخافت وحارت من مشاعرها التي اكتشفتها في نفسها. . إنها مرعبة! مع ذلك لم تكن مستغربة. . بطريقة ما تعرف جزء بدائي منها إلى ذلك التجاذب الأساسي وخاف منه.

حين وقعت عيناها للمرة الأولى على تيرنت ووجهه المتعجرف، تقبله قلبها كحبيب عن غير وعي أو تفكر، دون إدراك. وما ظنته للوهلة الأولى كراهية هو النداء البسيط من امرأة إلى رجل.

ولقد عرف هذا. . وفيما حاولت براءتها أن تقنعها أن سبب الشرارات التي انطلقت منهما، هو عدم الثقة، عرف هو بخبرته الواسعة انه التجاذب بين الرجل والمرأة.

أقسمت: لن يحدث هذا مرة أخرى. . أبداً. فما كان عقلها اللاواعي يقوله لها، هو أنها قد تصبح مدمنة على الأحاسيس التي يثيرها فيها. . وهو رجل قاسٍ. . فلو أصبحت تحت رحمته لذاقت معه الأمرين.

عندما تقدمت نحوه، قال لها:

ـ اشربي بعض القهوة.

كيف يتصرف وكأن شيئاً لم يحدث؟

عندما وصلا إلى المنزل بعد رحلة صامتة وجدا داليا كاتلرز هناك، جالسة على الشرفة مع آغنوس وأمه. بعد فترة قصيرة تبين لهيلين أن داليا رغم تأثرها بسحر تيرنت غارقة في حب آغنوس الذي لم يكن مهتماً. . ولكنه كان يعاملها بود وصداقة وهذا ما يسخطها.

كانت جميلة وصغيرة. . شعرها بني وعيناها سوداوان كبيرتان،

ولمرها مكتنز أما صوتها اللطيف العميق فكان يتنافر مع مظهرها المطلولي وكانت تتكلم بلكنة السيدة بايتون، وهذا ما يجعل المرء يفكر في المدارس الداخلية.. لأن الرجلين لم يكونا قادرين على إتقان مثل هذه اللكنة.

كانت داليا فاتنة، وفيما كان الحديث يدور بينها وبين تيرنت وأمه عن كتاب ما سألت داليا برقة:

ـ ما رأيك فيه هيلين؟

أجابت داليا برقة مضاعفة عندما قالت هيلين انها لم تقرأه.

ـ حسناً.. كنا مضطرات لقراءة الكتب الكلاسيكية في المدرسة، ولقد وجدتها مضجرة كثيراً.. لكن هذا كتاب مختلف.. إنه أحد الكتب القليلة التي استمتعت بقراءتها.

بعد صمت قالت داليا، وكأنها تبحث خصائص نوع نادر من الحيوانات البرية:

ـ بالتأكيد الأوستراليون محبون للرياضة. أية رياضة تمارسين هيلين؟

ـ لا أمارس أية رياضة بمهارة فائقة ولكنني أسبح وأركب الموج، وألعب التنس.

ـ أوه.. رائع، هل رأيت ملعب التنس هنا؟ وبركة السباحة؟

وعندما جاء رد هيلين سلبياً أضافت:

ـ ولماذا؟ يجب أن نلعب دوراً الليلة.. يمكننا لعب الثنائي المزدوج.. إلا إذا كان آغنوس متعباً.

بدا أن هذه نكتة، فقد مال آغنوس ليشد خصلة من شعرها ويقول غاضباً:

ـ حذار من لسانك أيتها الطفلة!

ضحكت داليا.. ورفعت هيلين عينيها فالتقت عيناها لا إرادياً بعيني تيرنت، وقرأت فيهما الرضى البارد.. وكأنه يقول بغير

كلمات: أرأيت، كل منهما يناسب الآخر.

وهو على حق.. فمع أن آغنوس يرفض هذا المنطق تجد هيلين أنها الزوجة المثالية له.

ما إن حلَّ المساء حتى بدؤوا يلعبون التنس رباعياً كما أرادت داليا.. هي وآغنوس ضد تيرنت وهيلين، اللذان هزماهما بسهولة..

قال آغنوس:

ـ لعب ممتاز.. لديك ضربة قوية حلوتي.

ردت هيلين بخفة:

ـ لقد ترعرعت عليها كثيراً.. حين تشتد عليّ صعوبات الحياة أذهب لأحطم طابات التنس على الحائط.. إنها طريقة ترضي النفس.

ضحك وانحنى يهمس في أذنها:

ـ في المرة القادم العبي معي.. فما زالت داليا في صفوف الأرانب!

وهذا غير منصف، فضرباته في البداية خذلت شريكته أكثر من مرة.

كان الوضع مربكاً.. ولم تستطع هيلين منع نفسها من الشعور بالأسى على داليا التي كانت عيناها تغرقان بالألم كلما وقعتا على آغنوس. لكنها كانت متعاطفة معه أيضاً، فأمه تستخدم تكتيكات غير عادلة أبداً للضغط عليه ولو تركته على هواه لأدرك أن داليا تعجبه كثيراً. فإن كان لا يشعر نحوها إلا بالعطف فلماذا لا يستجمع قواه ويقول لأمه هذا ويطالبها بإيقاف هذه المحاولات التي لن توصل إلا إلى الحزن لواحد منهما؟

حين سألته هذا وهما خارج غرفتها تنهد:

ـ لن تدركي هذا.. ولكن يصعب عليّ أن أطلب من أمي عدم التدخل.. إنها تحبني ولا أريد أن أجرح مشاعرها.. لقد كنت دائماً

المفضل لديها.. فتيرنت مكتف بذاته، وهو ابن أبيه. إنها تعتمد عليّ للحنان.. إذ لا شيء مشترك بينهما.

قبلها على جبهتها قائلاً: لا توبخيني هيلين.

لكن، ألا يلاحظ أنه يستخدمها بكل جرأة درعاً بين أمه وبين نفسه؟ لا.. لن يلاحظ هذا.. فهو غير معتاد على محاسبة نفسه..

تمتمت: «أنا لا أحب أذية الناس.. هذه.. هذه التمثيلية تكدر أمك، وتؤلم داليا.. إنها فتاة حلوة...».

تأوه: «يا إلهي! هذا ما يصعّب الأمر كثيراً.. تنظر إليّ تينك العينين البنيتين، فأحس أنني حقير.. ولكن كيف أستطيع الزواج بها ما دمت لا أحبها؟ أنا أريدك أنت!»

ـ لقد وعدتني...

تقبل انسحابها السريع:

ـ أعرف.. لكن لا تنسي أنني أريدك هيلين، ولن أتراجع أمام أمي، أو أمام أخي أو من أجل داليا ولن أكف عن قول هذا لك حتى تصدقيني.. وعندئذ أقنعك بأنك تحبينني أيضاً.. أحببتني في السيرفرز، وتستطيعين أن تحبيني هنا.. أعرف أنك تكرهين هذا الموقف، أنت صريحة جداً ومنفتحة، لكن إن سرنا بخطوات وئيدة هادئة فسيصبح كل شيء على ما يرام في النهاية.

* * *

٥ ـ الدفاع المستحيل

من سوء حظ آغنوس أن الأمور لم تسر على هواه. فالأيام التالية كشفت أن وصول داليا إلى مسرح الأحداث قوّى من تصرفات السيدة بايتون نحو الضيفة الأخرى، صحيح أنها لم تعد فظة بشكل مفضوح معها، ولكنها لم تكن تترك فرصة تمر دون أن تُشعرها بأنها دخيلة.

كانت داليا تقاتل بكل رقتها وسحرها من أجل حبيبها وكان على هيلين أن تعترف أن الفتاة بحاجة إلى طاقة تفوق التصور لئلا تحذو حذو مضيفتها.

ربما كانت الحياة ستكون أسهل لو استطاعت هيلين أن تكره الفتاة الصغيرة، لكنها لم تستطع.. ففي كل يوم كانت تزداد قناعة بأن داليا هي الفتاة المثالية لآغنوس.

لم تستطع هيلين تخليص نفسها من الشك في أن آغنوس يستمتع برمي «حبيبته» الجميلة بين أنياب أمه وأخيه.. وكان يشبع غروره بترك يده تستقر على ذراعها، أو بالجلوس قربها في الأمسيات والتحدث إليها بصوت هامس حميم.

عزمت النية عدة مرات على الرحيل لأن الرحيل هو التصرف الوحيد المنطقي فلترحل وتتركهم يتقاتلون فيما بينهم لحل مشاكلهم، ولكنها أقنعت نفسها أنها باقية لأن آغنوس غير قوي بما فيه الكفاية ليواجه الجميع وكانت أحياناً تقنع نفسها بأن هذا هو السبب الوحيد.

لكن ليلاً حين يجفوها النوم، كانت تعرف من الذي يشغل فكرها.

كان تيرنت مشغولاً دائماً.. وكان يمضي أمسياته على الرغم من احتجاجات أمه في مكتبته، أما الوقت القليل الذي كان يقضيه مع العائلة، فكان يعبث فيه بخفة مع داليا، وينظر إلى أخيه متجهماً ساخراً، وهذا ما كان يوتر آغنوس كثيراً. مع أنه لم يكن يسمح لأية مشاعر بالظهور في عينيه أو في صوته حين يكلم هيلين.

ولكن، كان بينها وبين تيرنت دوماً نوع من الإحساس، غير مرئي كتيار كهربائي، ونادراً ما كان يلمسها، لكن حين كنت عيناه تستقران عليها وعلى ثنايا وجهها كانت تحس بدفء مفاجيء، وكانت تعذبها مشاعر وأحاسيس لم يسبق لها أن تعرفت إلى مثلها.

وكان تيرنت يعرف هذا بالتأكيد.. أو بالأحرى، كان هو كذلك عرضة لهذه المشاعر. ولكنه كان أبرع منها في إخفاء مشاعره. مع أنها كانت تشعر بتأثير عينيه فيها، وبالتوتر الذي يتذبذب بينهما بحيث كانت تتساءل لماذا لا يراه الآخرون.

لكن الوضع كان أفضل بكثير في النهار.. فالمنزل بحاجة إلى عناية، وهناك رحلات استكشاف حول المزرعة ونحو شاطيء المحيط الطويل. وكان الكثير من الناس يزورون تي ناوي، لذا كانوا يواجهون الحياة الاجتماعية النشطة كأي ضاحية ريفية.

أما الطقس فمتقلب ولكن بعد مرور الأسابيع بدأت الأيام التي ازداد طولها تبدو أدفأ للقلب. في البستان خلف المنزل كانت أشجار التفاح تعرض زهورها الجديدة الحمراء الرأس نحو السماء، وبدأت الحمضيات تزهر وراح عطرها اللذيذ الفواح يعبق في الجو.

في أحد الأيام تجولت هيلين تحت أشجار الخوخ يرافقها القط نومي.. أما السيدة بايتون وداليا فذهبتا للعب الغولف، وكانت تستمتع بعزلتها.. لم تكن قد شعرت من قبل أنها محاصرة بالناس

هكذا . . وعلى الرغم من حجم المنزل بدأت تشعر بالضيق .

إنها غريبة على تي ناوي ومالكيها . . وهذا أوضح من عين الشمس فحتى آغنوس كان يُذهل أحياناً بسبب افتقارها إلى معلومات عن المواضيع التي يتناقشونها . . كانت هيلين كمعظم الناس تكره مواقف الدفاع لكن قيمها مغايرة لقيمهم . وبدا من الغريب لها أن تعرف أن المهارات التي تفخر بها كقدراتها وكفاءتها وقدرتها على إدارة مكتب، لا تساوي شيئاً عندهم .

شوّش نداء عليها أفكارها فعبست واستدارت، تغطي عينيها من أشعة الشمس . أهو آغنوس؟ لا، ليس آغنوس .

توقفت إلى جانب شجرة «غريب فروت» كبيرة مثمرة وانتظرت وعلى وجهها تعابير القلق . قال برقة : «تعالي» .

ـ إلى أين؟

ـ سأعلمك الدرس الأول لركوب خيل .

عضت شفتها فوراً : «أنا . . حسناً، أنا لست . . » .

قال بنفاد صبر :

ـ آه . توقفي عن التمتمة .

وجرها معه وكأنها لا تزن شيئاً .

وراء السياج رأت جوادين ينتظران . . ولم تكن هيلين تعرف شيئاً عنها ولكن كان لديها عين ناقدة، وأدركت أن هذين الجوادين أرفع قيمة من سائر جياد المزرعة . .

كان الجواد الأصغر فرس برّاقة الجلد . ما إن اقتربا حتى رفعت الفرس أذنيها .

قال تيرنت بعفوية :

ـ هذه بيلا . . وهي إضافة إلى جمالها هادئة ولطيفة . . لذا لا لزوم لنظرة الخوف هذه .

ولكن بيلا ليست السبب في نظرة الخوف، وهو يعرف هذا . .

كانت تحاول معرفة السبب الذي جعله يسعى إليها، قالت:
- تبدو لي ثمينة.
رفع حاجبيه: «إنها ثمينة.. لماذا؟»
- قد تؤذي فمها أو أي عضو آخر، لا أريد أن أشد اللجام أو أن أولمها.
تصاعد صرير البوابة التي كان يفتحها. ولمعت الشمس بلون أزرق في شعر هيلين، فجأة.. كانت كثافة مشاعرها تغرقها، ودون أن تدرك ماذا تفعل رفعت رأسها ونظرت إليه، بعينين قاتمتين غاب اللون الأزرق عنهما.
تبادلا النظرات للحظات طويلة.. عينا هيلين تبحثان في وجهه في محاولة يائسة لإيجاد ما هو أكثر من الكراهية والرغبة فيها.
أدارها بقسوة نحو الفرس، ثم قال بفظاظة:
- إن كانت طريقتك في الركوب خرقاء أعلمتك بذلك. هيا بنا.
جاء كلامه زجراً، يشبه صفعة على الوجه.. لكنها لن تستجدي منه شيئاً خاصة اللطف والتفهم اللذين يفتقر إليهما.
تعلمت تحت إشرافه الصارم وبفضل تعاون بيلا كيف تمتطي وكيف تترجل وكيف تقبض اللجام وكيف تعدل حزام السرج.
قال ببرود، وهو يسير مع الفرس المطيعة في حلقات:
- أجل.. لك يدان ممتازتان.. وهذا ما اعتقدته.. يكفي اليوم. بإمكانك مرافقتي إلى الحظيرة لأعلمك طريقة نزع السرج واللجام.
كانا صامتين وهما يسيران ركوباً قرب المنزل ثم تبادلا أحاديث في مواضيع عملية بحتة.
ولكن ما إن تحررت بيلا حتى قال تيرنت:
- أترغبين في مرافقتي إلى القرية؟
جعله رفضها الفوري يرفع حاجبه: ولماذا لا؟

ـ أنا لا . . ليس عندي ما أفعله هناك .

قال ببرود وهو يمسك ذراعها ويديرها نحو المنزل :

ـ لا تكوني سخيفة . . لم أقابل قطُّ امرأة لا تحب التسوق .

ـ لكن آغنوس . . . ؟

اشتدت أصابعه على ذراعها قبل أن يتركها، فأردفت بلسان مربوط :

ـ قال إنه سيرافقني إلى هناك .

ـ آه . . لكننا نعرف أنك تفضلين الذهاب معي .

قال هذا بثقة جسور، حتى كادت لا تفهم المعنى . . وعندما فهمته تعثرت قدماها إشارة إلى الصدمة التي أوقعتها كلماته في نفسها .

سألها برقة : «حسناً؟»

هزت رأسها دون أن تجسر على النظر إليه . . فضحك :

ـ في الواقع يمكنك إسداء خدمة لي . . لدي ابنة عم في مثل عمرك وأريد شراء هدية ميلاد لها . إن أمي لا تفكر إلا في الأشياء التقليدية . . لكن ليونا فتاة شابة عصرية .

ـ إذن تريد مني أن أختار لك؟

ـ وهل هذا أمر عجيب؟ ذوقك رفيع، فملابسك مختارة بدقة بحيث تبرز جاذبيتك .

إنها كلمات إطراء، فلماذا تشعر بأنه صفعها؟ ردت بأدب وجفاء : «شكراً لك» .

ضحك وقال ساخراً :

ـ يصعب إرضاؤك . أنا لا أميل إلى المداهنة هيلين .

لا . . ولا يميل إلى الإرضاء كذلك فهو واثق من نفسه ثقة كبيرة . . لكن لماذا وهي شديدة الريبة هكذا، تجد أنها توافقه الرأي بإذعان؟

قالت لصورتها في المرآة: «السبب أنك بلهاء!»

لا شك أنه قوّم الموقف بينها وبين آغنوس، وما رآه دعاه إلى خنق عدائيته تجاهها. ولا حاجة ليكون ماكراً ليتساءل عن سبب تجاوبها معه فوق تلة تي ناوي.

كانت القرية صغيرة فيها محلات ومنازل قرب ميناء صغير.. في الطقس الرديء تربط المراكب إلى الميناء الخشبي، وفي الصيف ينتشر السواح على الشواطىء.. إنها مكان مرح، نشط، مركز لناحية فخمة ثرية، لذا كانت المحلات ممتازة.

قال لها تيرنت ساخراً وهو يخرج من السيارة:

ـ تجولي وتفرجي.. فلا شك أنك ستجدين شيئاً، سأتأخر ما يقارب الساعة.

ـ إلى أين؟..

ابتسم: «إلى طبيب الأسنان».

ـ أوه.. أيها المسكين!

للمرة الأولى في وجوده كانت ضحكتها صافية غير مكبوتة، وشفقتها حقيقية وظاهرة.

قال متذمراً: «لا أدري لماذا يعتقد الجميع أن هذا أمر مضحك.. أحس بالرعب!»

استعادت وقارها:

ـ وتبدو كذلك.. حظاً سعيداً.

أحنى رأسه: «شكراً لك سيدتي».

ارتدت هيلين على عقبيها وراحت تتظاهر بالنظر إلى واجهة محل أمامها.. لكن عينيها كانتا على انعكاس صورته في الزجاج، فلاحظت رشاقة خطوته وجسده النحيل القوي الشامخ بثقة وسيطرة.

راح الناس ينظرون إليه. كان معظمهم يبتسمون له فيرد لهم الابتسام.. فكرت في عدد النساء اللاتي عرفهن فشعرت بالغيرة،

ولكنها عزت نفسها لأن لديها ما لا يملكه أحد من الناس، فعلى الرغم من كراهيته لها يتأثر بقوة كلما نظر إليها.

فيما كانت تراقبه أحست بشيء يتمدد في داخلها، وفجأة أشرق نهارها وعجَّ بالألوان والبريق وفقاقيع الصابون.

بعد عشرين دقيقة وجدها تيرنت في محل للهدايا.

تجادلا كثيراً بشأن هدية ابنة عمه ثم اتفقا أخيراً على شراء وشاح مميز، صممته وحاكته امرأة من الشعب الأصلي.

اعترض تيرنت: «لكن هل هو من الأزياء السائدة؟»

ـ لا حاجة أن يكون من الأزياء السائدة.. إنه جميل.

اخترقتها نظرته وكأنه يحاول رؤية ما في أعماقها.. ولامس لون أحمر طفيف وجنتيها.

قال: «حسناً.. أيمكن أن أستشهد بك على هذا؟»

ابتسمت: «أنت تعرفها تيرنت.. إذا لم تكن تعتقد...».

ـ عزيزتي.. أنا متأكد أن لا شائبة في ذوقك.

والتفت إلى البائعة وقال لها بصوت فاتن: سنأخذ هذا.

ـ إنه جميل، أليس كذلك؟

بعدما لفته المرأة قالت:

ـ شكراً لك تيرنت، سأبلغ ميليسا سمرداي أنه أعجبك.

قال لها وهما في السيارة:

ـ والآن.. أخبريني معنى تلك النظرة المحددة التي نظرت إليّ بها.

ـ أوه.. الأمر فقط أنني لم أتسوق من ذي قبل مع شخص إعجابه بما اشتراه يجعل صانعه سعيداً. ألم تقل البائعة إن ميليسا سمرداي ستكون سعيدة عندما تعلم.

قال متسلياً، وهو ينطلق بالسيارة:

ـ هذه ملاحظة ساخرة.

ـ لم أقصد أن تكون ساخرة . . أعتقد أنني خرجت عن حدي .
ـ ولكنك تتعلمين العوم بسرعة .
بعد قليل سألها بخفة :
ـ لا رد هيلين؟
هزت رأسها نفياً : «ليس عندي رد على هذا» .
ـ إذن أخبريني هل أعجبتك داليا؟
بعد لحظة تردد قالت :
ـ أشك في أن يستطيع أحد عدم الإعجاب بها . .
ـ مع ذلك لا تمانعين في إيلامها؟
سحبت هيلين نفساً عميقاً :
ـ أنا . . بلى بالتأكيد أكره إيلامها .
ـ ولست مستعدة لفعل شيء إزاء هذا .
نظرت إلى يديها في حضنها لتتأكد من ثباتهما وعدم ارتعاشهما . لعنت نفسها على حماقتها وكرهت تيرنت على قسوته لأنه فرض الموضوع الآن، أي في الوقت الذي تشعر فيه بالسعادة .
ـ لا أستطيع تيرنت . . من غير العدل دفع آغنوس إلى ما لا يريده! ليس عدلاً له، أو عدلاً لداليا .
ـ إذا كان حقاً لا يريدها، فلا أمل في دفعه إلى شيء . . نعم، لا أنكر أنه ضعيف إنما ليس إلى هذا الحد .
ـ إن لوحق ليتزوجها فكم برأيك سيعيش زواجهما؟
ـ كأي زواج آخر، أو ربما أطول . . إن ابتعدت عن طريقه أدرك بسرعة أنه كان يحب داليا منذ سنوات . . ولكن كما أشرت منذ لحظات أنت لا تنتمين إلى وسطنا رغم جمالك، أما داليا فعكسك تماماً .

وثب شيء ما في أعماق قلبها من مكانه ورفضت الكلمات أن تخرج . . نظرت إلى يديها مجدداً تحاول أن تقول له . . ماذا؟ لا

شيء! ليس لديها ما تقوله للدفاع عن نفسها.

أخيراً قالت بصوت متزمت: «سيبرز الوقت هذا».

ـ الوقت؟ ماذا عن المال؟ كم تريدين هيلين؟ ما هو الثمن الذي تريدينه لتوضبي ثيابك وترحلي.. وتتركي الميدان خالياً لداليا؟

تركتها الإهانة مقطوعة الأنفاس.. حينما استعادت قدرتها على التنفس أحست بألم لا يطاق، وبدت مرعوبة مصدومة.. ونظرت إلى يديها ثم قالت ببؤس بارد:

ـ لا شيء.. لا شيء تعطيني إياه قد يقنعني بالذهاب.

ـ لكنه لن يتزوجك.

ـ إذن لماذا أنت ملهوف هكذا للخلاص مني؟

ـ لئلا تظني أنك قادرة على الحصول على زواج.

انعطف بالسيارة إلى ما يشبه «الزقاق» وكان يحف به غابة من الصنوبر الطويل الرفيع المغروس بعناية وترتيب..

أردف تيرنت بقسوة: «لن تنجحي.. حينما يصل الأمر إلى حده فلن يقف آغنوس للدفاع عنك مهما كنت صديقة رائعة له، فهو يريد زوجة يفتخر بها لا من يضطر إلى الاعتذار عنها».

تلاشى اللون عن وجهها تاركاً إياه متوتراً بكبرياء باردة. اللون الوحيد كان في استدارة فمها، والأزرق القاتم في عينيها.. قالت وصوتها هادىء بمعجزة ما:

ـ هذا شأني أنا.

ـ وشأني أنا كذلك.. كوني عاقلة. لا ألومك على استخدامك وجهك الجميل وجسدك لتحسين مستقبلك.. إنما يجب على المغامرين معرفة شيء واحد، هو متى يتخلصون مما نتيجته الخسارة.. وآغنوس قضية خاسرة. أنت لا تحبينه.. وما يشعر به نحوك هو بدائي أكثر من الحب. لكنه يشعر بالحماية نحو داليا، ويمازحها ويتحدث إليها وهذا ما لا يفعله معك.

قالت بصوت مخنوق: «أكرهك».

وأشاحت بوجهها تبعده عن لمسة إصبعه.. فقال:

ـ تكرهينني لأن رغبتك فيّ تقف حائلاً في طريق خططك؟

فك حزام مقعده، وانحنى نحوها:

ـ ألا ترغبين فيّ هيلين؟

ولكنه لم يلمسها، ولا أمسك بها، مع ذلك لم تستطع الحراك، أخيراً نظر إليها بعداء بارد:

ـ أريد منك أن ترحلي.. لقد تسببت بما فيه الكفاية من الخراب. قدمي أعذارك الليلة، وارحلي في الغد.. وإلا استخدمت سلاحاً آخر أملكه.. وسأتمتع بما سأفعل.

لم يتبادلا كلمة أخرى حتى وصلا إلى المنزل، ثم قال: تذكري هيلين.

في اللحظة عينها وصلت السيدة بايتون وداليا إلى المنزل.. لذا اضطرت إلى التظاهر بأن لا شيء يكدرها. فكلتاهما تمتلك عيناً ثاقبة، وكلتاهما تراقبها عن كثب.

عندما وصلت إلى عزلة غرفتها بدت الغرفة المثيرة تسخر من غضبها ومن ازدرائها لنفسها.. ارتدت سروالاً من الجينز وكنزة صوفية، ثم خرجت إلى المرجة ومنها إلى بستان الكرز المزهر وهو أبعد جزء في الحديقة.

رمت نفسها على مقعد صدىء يقبع تحت شجرة زهورها بلون الشوكولا.

في لحظات جنون سمحت لعقلها أن يتخيل أشياء قبل أن تجفل متألمة وتعيده إلى الواقع. أكل هذا لأنه طويل رشيق وبرونزي البشرة؟.. أم لأن قسمات وجهه تشكل قناعاً قاسياً أم لأن عينيه توضحان أكثر من اللازم، حين ينظر إليها، أنه معجب بما يراه؟.. هذه كلها أسلحة فتاكة في خزانة سلاحه.. لكن يجب أن تقاتلها

كلها . . ولو أعطته الفرصة لاستغلها أكبر استغلال، ثم لتخلص منها بعدم الاكتراث ذاته . . وهذا ما سيحطمها بالتأكيد .

اعترفت للمرة الأولى أن دفاعاتها هشة، ولن يجد صعوبة تذكر في اختراق تلك الدفاعات .

ويعرف هذا أيضاً . في السيارة أنذرها بثقة وعجرفة وكان واثقاً من قدرته على تنفيذ تهديده . لقد جعل الصوت البارد الذي لا يلين الأمر في غاية الوضوح فإن لم ترحل فهو ينوي تنفيذ تهديده بشغف لا رحمة فيه . إنه يخيفها . . وأجل، يجب أن تعترف، ويشدّها في الوقت نفسه .

همست من بين أسنانها : لا شك أنني مجنونة!

هبّت واقفة على قدميها، تعدو في الحديقة، وكأنما شاهدت ملاكاً أسود تحت السرخس الفضي .

* * *

٦ ـ ألقت أسلحتها

حينما مرت هيلين قرب المكتب تناهى إلى مسمعيها وراء الباب أصوات مرتفعة. إنه تيرنت.. تيرنت وآغنوس.. ترددت لحظة عابسة وكانت أذناها تصغيان.. ثم تنهدت وتابعت المسير. ستزيد الطين بلة إن بقيت واقفة.

كانت داليا منتظرة حزينة وعلى الرغم من ماكياجها الممتاز بدت آثار البكاء. تبادلتا ابتسامتين وقالت داليا شيئاً عرضياً عن الطقس فحذت هيلين حذوها ثم فكرت أنها لو كانت في ظروف أخرى لأصبحت وداليا صديقتين..

كانت السيدة بايتون التالية.. تعابير وجهها مشدودة، ولكنها بدت رابطة الجأش. مع أن في عينيها إدانة واضحة تجاهها.. وكبتت هيلين تنهيدة. فبمقدار ما تكره الاستسلام أمام تهديدات تيرنت، تجد أن إقامتها هنا تشارف على النهاية وهذا ما ستقوله لآغنوس غداً. إذ لا يمكنها البقاء ووجودها يثير كل هذه المتاعب، وتعتقد أن الحياة في تي ناوي ستكون أهنأ للجميع حين تغادرها.

عندما وصل آغنوس بدا في مزاج غريب.. في البداية ظنت أن المشاجرة لم تؤثر في أعصابه.. ولكن مع مرور الأمسية بدا من الواضح أن تحت تصرفه المرح مزاجاً آخر قاتماً، فراح يعامل داليا بمزاج نصف عدائي كاشفاً بذلك ما الذي سبّب احمرار جفنيها.. أما مع هيلين فكان مثال العاشق، يرمقها بنظرات حب لها معان كثيرة..

يبتسم، مستغلاً كل فرصة للتودد إليها بخفة وتملّك. بعد العشاء بوقت صغير تركهم تيرنت، وأملت هيلين أن يوقف آغنوس استفزازاته.. لكن.. لا، هذا ما لم يحدث إذ جلس على ذراع مقعدها يمرر أصابعه على كتفيها ويتظاهر بمراقبة التلفزيون.. الواضح أنه تشاجر مع داليا ثم اصطدم مع تيرنت. وكان بتصرفاته هذه يحاول أن يظهر لهما معاً أن لا سلطان لهما عليه ولا على تصرفاته.. كان كالطفل الذي يسيء الأدب حين يعرف أن لا أحد قادر على توبيخه.

في الخارج واجهت أخيراً وهي تحت شجرة «البونغا» أنها ما بقيت هنا هذه المدة إلا بسبب تيرنت. الكبرياء هي التي أملت عليها قرارها الأخير فمن المذل أن تكون قرب رجل لا يحس نحوها إلا بدرجة من الرغبة المشبعة بالازدراء.

أخيراً تركتهما داليا تتذرع بصداع أليم.. في ابتسامتها شجاعة وأناقة ولكن هيلين أحست بألمها وكأنما هو ألمها هي.. فأرادت اللحاق بها.

لكن آغنوس احتج: «أوه.. حبيبتي..».

نظرت إليه هيلين بثبات، بدرجة من التوبيخ، وقالت بهدوء: «أنا متعبة».

ـ إذن سأرافقك إلى غرفتك.

ـ لا تزعج نفسك.

لكنه لحق بها إلى غرفتها متجاهلاً احتجاجها، وجلس على حافة السرير.. كانت الأغطية مردودة، ونظر حوله بغضب قبل أن يتمتم:

ـ أوه.. يا إلهي.. ماذا سأفعل؟

لم ترد هيلين فأضاف:

ـ كان علينا الزواج في أوستراليا.

ـ حتى وأنت تحب داليا؟

عبس. ثم نظر إليها غاضباً:

ـ أوه.. اجلسي بحق الله هيلين.. ولا تنظري إليّ وكأنني.. وكأنني أحط أشكال البشر! أتتركين نفسك تنقادين إلى زواج كالكلاب التي ترعى الغنم، نباح من هنا ونباح من هناك، وقليل من النظرات، دائماً ضغط.. ضغط.. أنا كالخروف المحبوس في حظيرة..

ثم شد على الغطاء وأضاف بانفجار عدواني:

ـ لا أحد.. يجب أن يفعل هذا برجل.. هذا ليس عدلاً!

وافقته الرأي بلطف وتقدمت للجلوس إلى جانبه:

ـ لا.. يجب أن تذهب الآن.. يمكنك اتخاذ القرار في الصباح.. لا يمكنك البقاء هنا آغنوس.

ابتسم ابتسامة غامضة ثم استلقى إلى الوراء على الوسائد، وأغمض عينيه لينام فحاولت منعه. وحين اتضح أن كلامها يذهب هباء تمتمت: «اللعنة!».

أقفلت الباب ثم جلست في المقعد تنتظر.

بعد ساعتين استيقظ متأوهاً وراح يفرك عينيه بيديه وينظر حوله بارتباك.. ثم قال ما إن رآها:

ـ يا إلهي.. رأسي يؤلمني.

هزت رأسها وتقدمت نحو السرير: «أتريد شيئاً مضاداً له؟»

ـ أجل.

ابتلع الأسبرين وشرب كوباً من الماء ثم قال:

ـ أنا آسف.. كنت متعباً ومتوتراً.. ولم أكن أنام جيداً.

ابتسمت قليلاً:

ـ لا بأس.. إنما من الأفضل أن تذهب الآن.

جلس متألماً ولكنه تمكن من الابتسام.

ـ أجل.. أنت حبيبة هيلين.. آسف على توريطك في هذا كله.

وهذا كل ما ستحصل عليه كاعتذار.. إذ لم يكن لديه فكرة عما يفعله أو ما يعرضها له.. آغنوس أناني.. ولكن ألسنا جميعاً أنانيين؟

قال: «شكراً لك.. شكراً لكل شيء».

كان وداعاً ضمنياً، فقبلته على هذا الأساس، وقالت ضاحكة:

ـ على الرحب والسعة. والآن حباً بالله، اذهب قبل أن يراك أحد.

ـ أوه.. ينقصني هذا.

تسللت إلى السرير، واستلقت واضعةً يديها خلف رأسها تحدق إلى الظلام. كانت رائحة القرنفل تعبق في الجو وكانت تسمع نقيق الضفادع وأصوات صراصير الحصاد، ووجدت نفسها تتساءل كيف ينظمون أنفسهم ليصدحوا معاً وكأنهم كورس مدرب خير تدريب.. إنها ليلة من ليالي الربيع الساحرة التي فيها يبدو كل شيء مستيقظاً ومترقباً.

لم يتناه إليها أي صوت من الغرفة المجاورة.. المنزل مبني بطريقة مدروسة وعلى الرغم من حجمه كان تيرنت يتحرك بخفة تذكرها بنمر الغابة.

تيرنت.. جف حلقها. إنه مثلها ينام وأبوابه الزجاجية مفتوحة لاستقبال هواء الليل المنعش. لو أن لديها الشجاعة الكافية لأقدمت على التسلل عبر الشرفة. بريق النجوم كان مشعّاً بحيث يسمح لها بالوقوف في غرفته لتصغي إلى تنفسه.. وكالطيف الصامت ستتسلل إلى غرفته.

وما الذي سيحدث عندئذٍ؟ الرفض والاحتقار أم اللهفة والاحتقار؟ لم تكن تدري..

استدارت نصف استدارة تكبت شهقة بكاء، وأجفلت لأن الباب انفتح . . ليس آغنوس مرة أخرى . . بالتأكيد!

ـ من . . من القادم؟

ـ لا تقولي إنك لا تتوقعين قدومي.

لا . . ليس آغنوس!

ـ ماذا . . ماذا تريد.

أدار مصباح الجدار وهو يتقدم إلى سريرها . . تحت النور بدا ضخماً، رجلاً خطيراً، أسود في تعابير وجهه شر مطبق، فتوقف قلبها في حنجرتها . .

همست: «تيرنت؟»

قال بغضب: «لقد حذرتك، وأنا لا أقول أبداً ما لا أعنيه . . هل ظننت حقاً أنك قادرة على النجاة؟ ما كان عليك القيام بمثل هذا الوداع العلني حبيبتي . . فلدي سمع غير عادي».

حاولت مرتين أن تأمره بالخروج . . لكن الكلمات لم تشق طريقها إلى الوجود، كانت نظرته الضبابية تحرقها.

قال من بين أسنانه:

ـ لقد ذهبت إلى غرفته لأتصالح معه فلم أجده. هل قررت أن تخسري كل شيء في ضربة أخيرة حبيبتي؟ لن تنجحي، سترحلين غداً . . لكن، قبل ذلك . .

شهقت، تصده بيديها: لا!

ـ بلى!

نظرت إليه فأجفلتها الكراهية البارزة في عينيه . . كان يتكلم بسرعة وكان ملء كل كلمة الازدراء.

ـ لمَ الاحتجاج؟ فهذا ما أردته منذ وصولك إلى هنا . . لقد عرفت بعد خمس دقائق من وقوع بصري عليك أنني قادر على الحصول عليك متى شئت.

كانت يداه على خصره ترتجفان وكأنما يقاوم اندفاعاً لا يقاوم لإيذائها.

أضاف: «أجل.. لقد حولت هذا المنزل إلى جحر للنقيصة.. كيف فعلت هذا؟ كيف لساقطة مثلك أن تخلق كل هذا العذاب واليأس والألم؟».

ابتسم وفي نيته قصد شرير، ومد يده.. كانت غاضبة وساخطة من وحشية كلماته التي أصابت وتراً حساساً في أعماقها، ارتدت مبتعدة تحاول أن تصبح بعيدة عن مناله قدر الإمكان، ولكنه ضحك وأمسك خصلة من شعرها.

قال متجاهلاً الدموع التي بدأت تنهمر على وجنتيها:

ـ أيتها العابثة، المعذبة..

أمسكت يداها يديه في محاولة منها لتحرير شعرها.. فراح يشتم.

وكرهت نفسها وهي تقول متوسلة:

ـ تيرنت.. لم يكن الأمر كما ظننت. لم يحدث شيء.. يجب أن تصدقني..

ـ وكيف أصدق ساقطة؟

همست: «أرجوك اتركني.. أنا راحلة في الغد».

ـ أعرف.. ولكن قبل أن ترحلي، يجب أن نتعارف جيداً.

اقشعر بدن هيلين، وتبللت عرقاً.

ـ لا أريد.. لا أريدك.

ضحك: «كاذبة.. أعرف تماماً ما تريدين لأنه ما أريده أنا».

توسلت إليه:

ـ لا! تيرنت.. لا أريد هذا.. أرجوك.. لا تفعل!

ـ لماذا تستمرين بالكذب؟ أيؤلمك قول الحقيقة؟

ثم جرها لتواجهه.. كانت عيناها تلمعان كحجري زفير،

ووجنتاها تلتهبان من الشعور بالخجل..

قال ساخراً:

ـ إذن، يمكنك أن تحمري خجلاً.

هزَّت قشعريرة موت باردة جسدها.. فاستكانت بين ذراعيه وهي تحاول التنفس بجهد.

فجأة سمعته يتمتم:

ـ يا إلهي.. أي نوع من السحر تستخدمين ضد الرجل؟ أتغنين التعاويذ السحرية تحت القمر لتمتص قوة إرادته، وشرفه؟ أكرهك، وأحتقرك، مع ذلك كل ما أحس به منذ أسابيع هو هذه الحاجة المخيفة إلى فقدان كل شيء وإلى الضياع في سحرك.

اعتصرتها الآلام.. وضغطت على قلبها.. ولكنها ارتجفت، وتملصت منه رافضة سماع كلماته. فتحت قسوة كلماته المدروسة اعتراف صريح بأن لها قدرة عليه لا تمتلكها أية امرأة أخرى. وقد كانت هذه المعرفة مرارة بالنسبة له وسعادة لها. غداً سيتفترقان عدوين، ولكن حين يتذكرها يتذكر أنها وحدها التي نجحت في اختراق درع قدرته واكتفائه بذاته وهو رجل لم تستطع امرأة اختراق دروعه.

دفعته بعيداً وقالت بصوت أجش:

ـ لا أستخدم أبداً أية تعويذة سحرية.. أترى. أنا لا أمسك بك لتبقى هنا.. أنت حر أن تذهب.

ولأن عيني هيلين معتادتان على أرق الأنوار. استطاعت رؤية خطوط فكه والتجاويف السوداء حيث تحترق عيناه، كما رأت حركة عنقه وهو يبتلع ريقه بصعوبة.. بعد لحظات ارتد عنها وجلس على حافة السرير محني الرأس.

وقفت هيلين جامدة، بينما مشاعرها تجتاح كيانها.. لم تكن بحاجة إلى رؤية وجهه لتتصور القوى التي كانت تمزقه.. فالكبرياء

تحارب الرغبة والغضب والحرارة تحاربان الازدراء الذي يوجهه مضطراً إلى نفسه. فكرت.. لو كنت أحبه لتعذبت من أجله.. لكنني لا أحبه.. ويبدو أن من المهم أن أتعلق بهذا الاعتقاد.

برقت عيناه من تحت أهدابه حينما خسر معركته مع نفسه.. فعرفت أن هذا بالنسبة له أكبر هزيمة مُني بها.

رأته يترك الغرفة دون أن يلقي ولو نظرة واحدة إلى الوراء.

ما إن فتحت عينيها في الصباح حتى رأت ضوء الفجر الرمادي في يوم ملبد بالغيوم ثم شعرت بقبضة خشنة على كتفها تهز رأسها من جانب إلى آخر تبعتها وخزة ألم حادة في خدها الذي نال صفعة، فتحت شفتيها مذعورة لتحتج، فرأت وجه آغنوس المشرق بالنشاط.

تمتمت: «ماذا.. ؟ ما الأمر؟ ما الذي حدث؟»

ـ أتسألينني هذا؟

أجفلها الازدراء في صوته فأردف بفظاظة:

ـ أخبرني تيرنت وهو يتناول فطوره أنه قضى ليله معك.

عادت لتغوص فوق الوسائد: «إنه كاذب».

أوه.. يا إلهي!

إنه أسوأ ما قد يفعله تيرنت. كيف تجرأ على الكذب؟

قالت بصوت مرتعش وهي تدفع شعرها عن وجهها:

ـ أخوك نذل..

ـ وأنت فاسقة. منذ متى بدأ هذا؟ منذ وصولك؟ لا شك أنك وتيرنت مرحتما كثيراً وأنتما تضحكان عليّ؟ ومتى أتوقع إعلان الخطوبة؟

ـ لا تكن أحمق.. تعرف أن تيرنت لا يجدني المرأة المناسبة لرجل مثله..

قاطعها بقسوة: «وأنا أوافقه الرأي».

ـ . . لذا من غير الممكن أن يفعل شيئاً أحمق كالزواج بي. يجب أن تعرف أنه كذب عليك. نعم لقد جاءني ليلة أمس ولكنني رفضته. . اسمع أنا راحلة اليوم.

نظر آغنوس إليها وقال ببرود:

ـ لا أصدقك لأني أعرف أن الكذب ليس من خصال أخي. أما بالنسبة لقرار رحيلك فأظنه قراراً صائباً.

تقدم نحو الباب ثم وقف، يقول بإهانة مقصودة:

ـ سأكتب لك شيكاً ثمناً لتذكرة السفر. . لا أريد لك أن تفلسي.

ـ لا تزعج نفسك. . حظاً سعيداً آغنوس.

تردد، ثم قال: «ولك كذلك».

وخرج يصفر وهو يمر بباب تيرنت.

الكبرياء مرة أخرى. . حسناً. . لم تكن محاولته سيئة في إنقاذ ماء وجهه. . بعد سنة سيرضى أن يتزوج داليا وسيكون سعيداً أما هي فلن يعود إلى تذكر وجهها.

كبحت شهقة بكاء وأدارت وجهها إلى الوسادة، بعد سنة لن تذكر شكل وجه آغنوس. . ولكنها تعرف أن قسمات وجه تيرنت محفورة في ذاكرتها. . واليوم ستتركه إلى الأبد.

نهضت من فراشها واستحمت، ثم ارتدت بنطلون جينز وكنزة بلون عينيها وبعد ذلك جففت شعرها فعقدته إلى الخلف تبعده عن وجهها. أبرزت تسريحتها خطوط وجهها الصافي القوي، وجعلتها تبدو أصغر عمراً وأكثر تجهماً، لم تكن تضع على وجهها عادة سوى كريم مرطب في النهار، ولكنها في هذا الصباح برّجته بعناية، مستخدمة كريم أساس لإخفاء شحوبه، وأحمر شفاه وردي.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة حين خرجت من غرفتها. وقفت لحظة بالباب، تنظر مترددة إلى الغرفة، وجوها الحي النشيط

وكأنه الملاذ الأمين.. ثم اتجهت إلى غرفة صغيرة قرب المطبخ حيث يقدم الفطور والغداء عادة.

كانت السيدة بايتون هناك تحتسي الشاي، وتقرأ صحيفة الأمس.. حين دخلت هيلين رفعت نظرها وعلى وجهها تعبير بارد.

تبادلتا التحيات، وجلست هيلين تقاوم إحساساً بالغثيان لمجرد التفكير في الطعام. كان الجو قد صفا، فالسماء زرقاء وحولهما أصوات تي ناوي المعتادة، هدير محرك بعيد، وثغاء الخرفان ونباح كلب هستيري، وقرقعة أدوات المطبخ المريحة التي يحدثها تحرك جانيت دورنت. راح شحرور يصدح بعذوبة، وفي مكان ما بدأت جرافة بالعمل ترافقها صيحات الأوامر.

قاومت هيلين تصاعد الحزن فيها.. فبعد اليوم لن تكون في أرض الماضي، ولن تتوقف عن الندم لطردها منها..

سألت السيدة بايتون بأدب: «ألديك خطط اليوم؟»

هزت هيلين رأسها..

ـ لا.. ليس لدي إلا تثبيت الحجز للعودة إلى الوطن.

ـ هكذا إذن!

لم يكن في صوتها أثر للانتصار، مع ذلك أحست هيلين به، واضحاً وكأنها تصيح به إلى السماء:

ـ متى تفكرين في العودة؟

ـ أوه.. في وقت قريب جداً.. فكرت في الرحيل اليوم في الواقع. لقد أحببت إقامتي هنا، لكنني أود أن أرى المزيد من نيوزيلند قبل أن أعود.

أصبح بإمكان العجوز أن تكون كريمة:

ـ أجل.. لدينا الكثير مما يستحق أن يراه السوّاح.. إلى أين تفكرين في الذهاب؟ «ساوث ايلند» جميلة جداً في هذا الوقت من السنة، مع أنها تبدو في أفضل أحوالها في الشتاء حين يهطل الثلج.

ـ أفكر في الذهاب إلى «روتورويا» لإلقاء نظرة على منطقة المياه الحرارية.

ـ أجل.. يجب أن تفعلي.. إنها فريدة ومذهلة..

ابتسمت هيلين بأدب.. فهي لا تنوي أن تذهب إلى أي مكان أبعد من أوكلاند على أن تلحق بالطائرة التالية إلى الوطن حيث تلعق جراحها في عزلة تامة.

انفتح الباب بشكل مفاجىء، فالتفتت المرأتان.. دخل تيرنت وعيناه تنتقلان من أمه إلى هيلين ثم قال بلا مقدمات:

ـ تلقيت لتوي مخابرة من أوكلاند. يجب أن أذهب إلى هناك لأقابل ديك هولنقوارث.. لقد طرأ شيء جديد في مزرعة سيدبوري، ويجب أن أذهب بعد الغداء.

قالت السيدة بايتون بلطف ورضى:

ـ أوه.. إذن يمكنك إيصال هيلين. قالت قبل قليل إنها قضت وقتاً كافياً هنا.

ـ حقاً؟

اقشعر ظهر هيلين بسبب السخرية فقالت: أجل.

ابتسم: «إذن. رافقيني إن شئت.. فأنا أحب الصحبة».

إنه كالشيطان القاسي الذي ينتقم لنفسه بسبب إظهاره عدم القدرة على ضبط مشاعره.

ومع أن قلبها وعقلها في اتحاد كانا يتألمان.. فقد نظرت إليه بأدب وثغرها يرتفع فوق ذقنها بكبرياء:

ـ شكراً لك.. متى تنوي المغادرة؟

ـ بعد الغداء مباشرة.. أتستطيعين أن تكوني جاهزة؟

ـ أجل.

نظرت العينان الرماديتان الخبيثتان بضجر إلى قناع وجهها الجميل.. وأحس بتراجعها الكامل وأغضبه هذا.. ولكنه أخفى

غضبه وارتدّ إلى أمه:

ـ أين آغنوس؟

ـ قرر الذهاب إلى القرية. قال ليلة أمس إنك بحاجة إلى قطع غيار للمضخة وقد رافقته داليا.. أظنهما ينويان زيارة جاني وجايمس بريستون.. وقد يبقيان للغداء.

ـ هكذا إذن..

ارتدّ إلى هيلين.. وفي أعماق عينيه انتصار وحشي مرير مشتعل ولكن سرعان ما انطفأ اشتعاله:

ـ حسناً، كوني على استعداد في تمام الواحدة.

وارتدّ على عقبيه باتجاه الباب.

إذن هذا كل شيء.. عندما كانت تضع ثيابها في الحقيبة أبعدت كل أفكارها المؤلمة عنها وركزت بقوة ويأس على ما تفعل. بعد بضع ساعات لن تراه. بالأمس كانت هذه الفكرة مؤلمة وكأنها ضربة في القلب.. ولكنها الآن ترحب بها.. المستقبل يلوح لها كجنة.. فبدون العذاب الذي يسببه وجود تيرنت ستلتقط قطع حياتها المتناثرة وتصنع منها شيئاً آخر.. بعد اليوم لن تترك نفسها عرضة لمثل هذا الإذلال والألم. إذا كان يحتقرها من قبل، فهو الآن يحس بمشاعر أقوى وأشد اسوداداً تجعله مجبراً على تعذيبها بقسوة. ولأنه تيرنت، صاحب العقل الفذ القاطع، فهو يعرف بالضبط كيف يوجه السهام بالكلمات.

آه! ستكون بالتأكيد سعيدة حين يبتعد عنها.

ما إن انتصف النهار حتى كانت على أهبة الاستعداد وكانت قبل ذلك قد كتبت رسالة لآغنوس ولكنها سترسلها بالبريد من أوكلاند، فإن تركتها هنا فلن تُدهش إن لم تصل إليه.

ابتسمت بسخرية.. تفكر أنها منذ بضعة أسابيع كانت خائفة من التفكير في أن أناساً من علية القوم كآل بايتون قد يتنازلون

لاستلام الرسالة. حسناً، لقد نضجت كثيراً منذ ذلك الوقت.. وحتى ترى آخر طيف لتيرنت ستتصرف بملء الثقة بالنفس.

بعد ذلك خرجت لتسير، وزارت الفرس بيلا وأطعمتها تفاحة، ثم ربتت أنفها المخملي، أما الفرس الصغيرة فراحت تضغط رأسها على رأس هيلين. للحظات أعمتها الدموع، فمسحتها بيد غاضبة وسارت في الحدائق بخطى متسارعة. كانت الأرض تحت الأشجار تمتد حتى البحر بغنى واخضرار. ولم يعد الطقس بارداً. كانت المياه الآن براقة مشعة. لقد أخبرها آغنوس أنهم يقيمون حفلات على الشاطىء.. حفلات تدوم من الظهيرة إلى ما بعد منتصف الليل.. حيث يسبحون، ويغنون، ويطهون طعامهم ويراقبون الأمواج العاتية المتكسرة على أعتاب الشاطىء.

حسناً! تنتظرها مياه أدفأ من هذه وحياة أهنأ منها.

مع الوقت سيتلاشى طيف تيرنت الشرير الذي يخيم على سعادتها وسيصبح هذا كله ذكريات أليمة رقيقة الملمس، إنما لن تكون جزءاً من كل لحظة ويقظة وكل حلم.

ارتدت على عقبيها قاصدة المنزل لمساعدة جانيت بتحضير الغداء. كانت وجبة مشبعة بالتوتر. في أثناء ذلك بدا تيرنت شارد الذهن يأكل بسرعة وكأنه لا يتذوق الطعام وترك لأمه إضفاء شيء من الصبغة الاجتماعية على الموقف. إنها المرة الأولى التي تتلقى فيها هيلين حديث مضيفتها، فاستجابت لها بلطف وردت على أجوبة لا معنى لها لأسئلة وتعليقات مماثلة لا معنى لها.

عندما ودعت جانيت تسللت إلى صوتها مشاعر حقيقية وهي تشكرها. كانت نظرة جانيت ماكرة لكنها ابتسمت وتمنت لها إجازة لطيفة في نيوزيلند، ثم وضع زمور نافذ الصبر حداً للوداع القصير مع السيدة بايتون وما هي إلا دقيقة حتى كانت السيارة الكبيرة تتسلل بهدوء إلى موقف المواشي. نظرت هيلين أمامها وعيناها مغشيتان

وعقلها رازح تحت صورة رجل تتلاعب يداه القويتان بمقود السيارة بمهارة.

الآن وهي مغادرة، اعترفت بأن ما تحس به نحوه ليس رغبة فحسب بل حباً. نعم لقد وقعت بحبه.. وفيما كانت تسند رأسها على ظهر المقعد تساءلت لماذا يجب أن يكون تيرنت القاسي الظالم الساحر، هو الذي سرق قلبها منها، فما أسهل أن يُحب آغنوس. لكن.. لا.. فقلبها اختار أخاه.

ربّما كان السبب قوته، تلك الشخصية الغرانيتية التي تروق لقوة مماثلة فيها.. إنها بحاجة إلى رجل قوي لتحبه.. فلم يوقظ آغنوس يوماً التجاوب الذي كان يتقد بسرعة مع تيرنت.. وتيرنت مختلف.. وأدركت بشكل ضبابي أن العدائية التي اشتعلت بينهما منذ النظرة الأولى كان أساسها حاجة مشتركة إلى الحماية. كل منهما أدرك أن في الآخر.. ماذا؟ قدرة على الإيلام والتشويه بعمق حتى يكون للجروح الناتجة أثر في الروح؟ كل شيء.. الجاذبية، الرغبة، الخجل والجوع.. إن فرحهما اليائس غير الإرادي ببعضهما بعضاً جزء من سلاسل سوداء كانت تربطهما معاً.

الحب؟ يبدو لها هذا بعيداً جداً عن المشاعر الرقيقة التي حلمت بها يوماً.

تملك أسرة بايتون منزلاً في «ريمورا» وهو مبنى أنيق تعتني به مدبرة منزل أخرى، قدمهما تيرنت لبعضهما ولحق بهما صعوداً على الدرج وصولاً إلى غرفة النوم التي خصصت لهيلين.

قال لمدبرة المنزل: «سأعود وقت العشاء».

والتفت إلى وجه هيلين المشتت:

ـ أراك بحاجة إلى راحة.

برقت أضواء زرقاء في شعرها وهي تحرك رأسها. فظنته تردد ولكن حين لحقت عيناها به، كان في طريقه إلى الباب.. فابتسمت

لمدبرة المنزل التي كانت أكثر أدباً من أن تكشف الفضول الذي شعرت به.

قالت: «أظن أنني سأستحم».

ـ حسناً. الحمام في الباب المجاور في الممر، أترغبين في فنجان شاي؟

ـ أرحب به كثيراً.

ـ سأحمله إلى هنا.

ولكن تيرنت لم يعد للعشاء..

قالت مدبرة المنزل:

ـ لقد طلب مني أن أبلِّغك اعتذاره، فما زال في المكتب. هل ترغبين في تناول الطعام على صينية؟

ـ أجل.. أرجوك.

كانت وجبة ممتازة الطهو.. وهذا ما جعلها تتناول نصف الوجبة. فيما بعد جلست في غرفة جميلة الأثاث.. وفيما كانت تصغي إلى نغمات لمعزوفة شوبان ترقرقت الدموع في عينيها وهطلت وهمست لنفسها «ليتني أموت».

عندما بدأت بالتثاؤب اتجهت إلى الباب.

ولمَّا كانت في منتصف الدرج سمعت طقطقة مفتاح في قفل الباب، فأدارت رأسها.. للحظات حدقت إليه من فوق، عيناه شاخصتان إليها ووجهه خالٍ من أي تعبير، فاشتدت يدها على سياج الدرج واحتاجت إلى قوة جبارة لتسترخي، وتابعت ارتقاء الدرج شامخة الرأس، مستقيمة الكتفين.

في غرفتها استندت إلى طاولة الزينة وكأنها ركضت مئة يارد. كانت يدها مضغوطة على قلبها الخافق بجنون، لذا لم تسمع وقع أقدام تحذرها. شهقت وشحب لونها ما إن انفتح الباب.

نظر إليها ورموشه تخفي مشاعره: «تركت الستيريو دائراً».

ـ أنا آسفة.

أغلق الباب وراءه:

ـ أستطيع أن أجعلك أشدّ أسفاً.

أجفلت: «أرجوك اذهب. تيرنت».

تقدم منها متجاهلاً رجاءها ثم وقف على بعد خطوة منها، فأحست بدوافعه الخطيرة للإيذاء.

ـ أنا قادر على جعلك تبكين على اليوم الذي ولدت فيه.

ابتسم لتراجعها اللاإرادي.. وأردف بصوت عميق:

ـ أحب أن أفعل ذلك. أحب إيلامك حتى يصبح هذا الوجه الأحمر شاحباً لا لون له.. أستطيع.. ألا أستطيع؟

راح نبض في عنقها يخفق بسرعة كاشفاً بذلك عن خوفها، فثبت نظره على ذلك النبض حتى ظنت أن بشرتها هناك تحترق وتلسعها.

همست فاقدة الرجاء: «أجل.. تعرف أنك قادر».

ومض النصر الغاضب في عينيه: «لماذا؟»

ابتسم مجدداً، وجذبها إليه بيدين قاسيتين:

ـ لماذا؟ أخبريني لماذا.. أيتها الساقطة الجميلة.. قولي وإلا أجبرتك على قولها!

ارتجفت رموشها.. ما هذه الرغبة السوداء إلى إذلالها؟

عندما رفعت رأسها التف شعرها بغمامة سوداء حول كتفيها. بدا في وجهها تكبر وفي عينيها وميض.

قالت بوضوح وتحد:

ـ لأنني أحبك.

ارتفع صدره وهبط: «نعم.. لماذا هيلين؟»

ـ لأنني بلهاء.. حمقاء مسكينة!

عادت مرة أخرى تلك الابتسامة البطيئة التي تشمئز منها

النفس.

ـ أنت هكذا فعلاً.. لولا جشعك لاستطعت الزواج برجل غني.. والله يعلم أنك أكثر من جميلة، لكنني أكره النساء الجشعات بل يكرههن معظم الرجال. فتذكري هذا في المرة القادمة التي يقع فيها نظرك على رجل ثري.

تسللت يداه إلى ذراعيها، حيث اشتدت أصابعه لتؤلمها.. أمرها برقة: «عانقيني هيلين».

لم يكن هناك أكثر من هذا عار ليبلوها به.. رفعت يديها ببطء حول كتفيه، ثم همست:

ـ وداعاً تيرنت.

ابتسم وعيناه تبرقان كالفولاذ:

ـ ليس بعد حبيبتي.

تحرك الشوق في أعماقها فترنحت ولكنه أبعدها عنه بحيث أصبح الشوق ألماً وإحباطاً.

تمتم: «لم أشاهد قطُّ مثل هاتين العينين، وكأنهما قطعتا زفير مشتعلتان من الداخل. زفير أزرق كالسماء في ليلة صيف..»

كانت نبضات هيلين تتسارع.. غرائزها جميعاً كانت تحذرها من الخطر.

شدها إليه وهمس على بشرتها الناعمة:

ـ أتبقين معي لو طلبت منك.. هيلين؟

سألته بمرارة: «ألا تعرف الإجابة؟»

ضحك.. وكرر سؤاله وهو يراقبها بعينين ضيقتين:

ـ أتبقين معي هيلين؟

ـ أجل.

وكانت الكلمة كالأسيد الحارق على لسانها.. وفي عينيها ألم مجنون. أما في عينيه فبدت علامات الانتصار.. وشيء آخر.

قال: «سأجد لك شقة.. وسأتمكن من المجيء إلى هنا دائماً لأراك. ولكنني حبيب متملك.. لذا، لن يكون هناك رجال غيري».

ـ حبيب؟ كلمة مالك أفضل تعبيراً.

ضحك تيرنت، وسأل ساخراً:

ـ أتعجبك فكرة امتلاكك؟ أفعل بك ما أشاء.. عبدة لي، مرتبطة بي بسلسلة أقوى من الحديد والفولاذ؟

التقت عيناها المظلمتان من الخوف بحرارة عينيه، لكنها لم تتحمل فأدارت وجهها إلى كتفه.. وهمست بصوت أجش:

ـ لا.. بل أكرهها.

ـ لكنها تروق لك. أما أنا فلا تروقني إلى قدر كبير.. لذا، من الأفضل أن تلحقي بطائرتك.

لم تدهش، إنما كل أثر للون تلاشى عن بشرتها، مع ذلك تمكنت من لملمة نوع من القوة لتواجه تعابير وجهه المتوحشة.. آلم تنفسها رئتيها، ووقفت كتمثال رخامي حينما بدا لها أن كل خلية في جسدها توقفت عن العمل.

إنها تفهم حاجته لإذلالها. لأنها في الليلة السابقة هي التي استخدمت قواها ضده لتذله.

لهذا أراد أن يقتل احترامها لنفسها.. نظرت إلى عينيه المراقبتين وقالت بهدوء:

ـ حسناً سأرحل.

كشفت أساريره للحظة عن صدمة ثم ابتعد. كان كيانها كله يصرخ من الإحباط ولكنها أجبرت نفسها على الصمود بكفاءة. فلا شيء تفعله قد يغير الموقف.

قال فجأة: «أهنئك هيلين. لديك جرأة تمكنك من الثبات طويلاً».

ولم يترك لها أدنى شك في أنه فهم الدوافع وراء ما تفعل.

توجّه نحو الباب. ثم استدار نصف استدارة وقال:

ـ حجزت لك مقعداً على رحلة طيران نيوزيلند إلى بريزبن صباح الغد.. كوني مستعدة في الساعة التاسعة. أما الدفع فعلى حساب أسرة بايتون.

رفعت رأسها بحدة:

ـ أرفض أن يدفع آغنوس.

ثم عضت لسانها لأنها فهمت ما وراء السخرية في عينيه:

ـ لا.. بل المؤسسة. هل عرض عليك الدفع؟ مسكينة هيلين!

خرج من الباب مبتسماً.

ما إن خرج حتى استلقت على السرير عاجزة عن ذرف الدموع وعن التفكير في غير هذا الألم القوي في القلب والفكر والجسد.. لم يحن بعد الوقت للبكاء من أجل تيرنت، أو البكاء على أملها الضائع.

كانت الطائرة النفاثة الكبيرة تحوم فوق سواحل أوستراليا، حين تلاشى صوتها وصمتت. نظرت بيأس إلى كوب القهوة الفارغ الذي طلبه لها الغريب الجالس قربها بعد الغداء وأصر على أن تشربه.. كانت مرهقة، نبرات صوتها جامدة، ولكنها كانت تشعر بأنها أفضل حالاً بعدما أراحت نفسها من العبء الملقى على كاهلها.

من الغريب أن تعري روحها أمام غريب. ولكن ألم يكن كل ما حدث معها غريباً؟ منذ لحظة انجذابها إلى آغنوس إلى آخر مشهد مأساوي مع تيرنت.

قال مرافقها بصوت أجش:

ـ حسناً عزيزتي.. أظن أن لك الحق في ذرف الدموع. ماذا تخططين الآن؟

ارتفعت معنوياتها قليلاً فقالت:

ـ سأجمع القطع المبعثرة، فلست الوحيدة التي وقعت في الحب

من جانب واحد ولكنني سأتغلب عليه. وعندما أبلغ التسعين سأتساءل لماذا بحق الله افتعلت كل ذاك الضجيج.

أسعده ردها، فضحك بهدوء وقال:

ـ آه.. عرفت أنك لن تدعي هذا يكدرك.. أخبريني ما هي مشاريعك الآتية؟

ـ لقد حجز لي تيرنت غرفة في فندق مدة أسبوع.. سأستغل الوقت لإيجاد عمل.

أصرّ على أن يرافقها إلى الفندق، وحينما ودعها تمنى لها حظاً سعيداً. لوحت له بعدما ترجلت من سيارة الأجرة ثم ارتدت على عقبيها لتلحق بالحمال إلى الفندق.. لن تعرف أبداً من هو منقذها المجهول، ولكنها لن تنساه أبداً.. كان لطيفاً معها في وقت كادت تنسى فيه وجود اللطف.

مرّت تلك الليلة كالبرق. نامت اثنتي عشرة ساعة قبل أن تستيقظ جائعة ولكنها احتاجت إلى قوة إرادة لتجبر الطعام على المرور في حلقها، فتجويع النفس تصرّف غبي.

بعد ذلك وضبت حقيبتها ونزلت لتقول لمكتب الاستقبال إنها راحلة.

ـ ولكن سيدتي مدة الحجز أسبوع. هل السبب عدم رضاك عنا؟

يستحيل عليها القول إنها لا تستطيع القبول بمال تيرنت:

ـ بالتأكيد لا. لقد غيرت رأيي بشأن البقاء في بريزبن ليس إلا.

بعدما أوجدت لنفسها خارج البلدة غرفة في نزل للمنامة، اشترت بضع صحف وبدأت تبحث عن عمل.

كما كانت تعتقد، ثبت لديها أن إيجاد عمل ليس بالأمر السهل.. ولم يكن هناك الكثير من الوظائف شاغرة، وتلك المعلن عنها عليها كثير من الإقبال.. ومع أن مؤهلاتها وكتب التوصية ممتازة، إلا أن أرباب العمل كانوا يجفلون ما إن يعرفوا أنها تخلت

عن عمل رائع من أجل رحلة إلى نيوزيلند. . وكما قالت لها امرأة في وكالة للتوظيف، يبدو في الأمر طعم الاستهتار.

في النهار، كانت تستطيع تجاهل حزنها، أما ليلاً فكانت تتذكر تيرنت. . آه، كم تكرهه، وكم تحبه. . إن الألم يتآكل قلبها بسببه.

بعد عشرة أيام، صادفت حظاً. قالت وهي تحاول جمع بعض اللهفة:

ـ تبدو لي مثالية. . إنها وظيفة في مكتب محاماة.

نظرت إليها الموظفة في الوكالة باستغراب:

ـ أجل. . وهذا هو العنوان.

كانت المكاتب في الطابق الثلاثين في أحد مباني بريزبن العصرية. . ولكن ما إن انفتح الباب إلى غرفة المقابلات، حتى وجدت أن الرجل الجالس وراء المكتب هو الذي صادفته في الطائرة. . فشهقت وتعال لون مفاجىء إلى بشرتها:

ـ أوه. . أوه. . هذا أنت!

ابتسم. كانت عيناه الماكرتان تلاحظان نحولها والظلال تحت عينيها، والخطوط حول ثغرها. .

سألت: «هل هذا أمر مدبر؟»

هز رأسه إيجاباً، ولكن عندما تحركت نحو الباب قال بهدوء:

ـ اجلسي هيلين. . أعدك بأن لا نوايا شريرة عندي تجاهك.

وحينما ترددت ابتسم، ورأت التعب وراء ابتسامته:

ـ اجلسي أيتها الطفلة السخيفة.

جلست مخدرة الحس وراحت أصابعها تتلاعب بحقيبة يدها بتوتر.

بدأ يقول:

ـ كان يجب أن أعرف أنك لن تبقي في الفندق لحظة أطول من الضروري. . ولقد عانيت الأمرّين لأتقفى أثرك. . أخيراً اضطررت

إلى هذه الطريقة . . أتعرفين أنني استقبلت امرأتين حتى الآن من أجل هذه الوظيفة التي لا وجود لها؟

سألت : لماذا؟ لماذا تريد الاتصال بي؟ في الطائرة قلت إننا لن نتقابل ثانية .

ـ عندما قلت ذلك كنت صادقاً . . وقبل أن أشرح لك شيئاً . . هل سمعت شيئاً عن تيرنت بايتون؟

تلاشت الألوان من وجنتيها تاركة إياها كزهرة في مهب الريح . . همست، متعبة أكثر من أن تشعر بشيء سوى الألم : لا .

قال بهدوء متعمد :

ـ لقد أرسلت إليه برقية من المفترض أن تكون منك . . أؤكد له وصولك سالمة .

ارتفع رأسها بحدة فوق عنق شديد النحول :

ـ كيف تجرؤ؟ من تحسب نفسك؟ أنا . . أنت . . لا يحق لك أن تفعل شيئاً كهذا! كيف تدس أنفك في شؤوني؟ من أنت؟

ـ فلينتظر هذا . . هل أنت واثقة أن لا أمل؟ أليس من الممكن أن يهرع وراءك حينما يجد أن الحياة بلا طعم بدونك؟

بدا من السهل الرد عليه :

ـ لا . . قلت لك إنه رماني .

ـ عرفت مما أخبرتني أنه يحبك .

هزت رأسها : «لا . . بل يكرهني» .

ـ في بعض الأحيان تتماشى العاطفتان .

وعندما هزت رأسها بشدة أردف بهدوء :

ـ حسناً . أيعقل أنه لا يُكنّ لك شيئاً؟

ـ اسمع أنت لا تعرف تيرنت فهو وإن كان يحبني لن يسمح لي بأن أدوس المزرعة مرة أخرى . . فأنا غير مناسبة كزوجة لفرد من أسرة بايتون . ولا أظن أن بإمكان أحد أن يدفعه إلى تغيير رأيه .

ـ هكذا إذن.

ثم أردف مفكراً:

ـ لو غيّر رأيه لاتصل بك. لقد سألت الفندق ولم أجد شيئاً.. ماذا تظنين أنني كنت أفعل في نيوزيلند هيلين؟

انهارت على الكرسي مجدداً.

ـ لا أدري.

ـ كنت هناك لأقابل طبيباً في أوكلاند.. بعد عدة فحوصات أجريت لي تأكدت من التشخيص الذي سبق أن سمعته هنا.. إنه تشخيص يقول إن لدي مرضاً سرطانياً، سيقتلني بعد ثلاث أو أربع سنوات.

أضاء الرعب عينيها وهمست:

ـ أنا آسفة كثيراً.. آسفة..

ثم صمتت فما تعاني منه قطرة في بحر معاناته.

قال، بعدم اكتراث، مع أنه كان يراقبها عن كثب:

ـ أمامي بضعة أشهر أعيش فيها مع المرض.. لقد عشت حياة جيدة. ولكنني نادم على شيء واحد هو أن لا أولاد عندي.

صمت طويلاً وعيناه تأسران عينيها، ثم أردف:

ـ هكذا.. أتتزوجينني هيلين لتنجبي لي ابناً أو ابنة؟

* * *

٧ ـ لا شيء يدوم

ـ دونا . . دونا . . أين أنت حبيبتي؟

ضحكت الطفلة وقفزت من وراء شجرة موز. كان رأسها مرفوعاً إلى الوراء وهي تنظر إلى وجه أمها.

تراقص قلب هيلين. إنها تشبه كاين . . إنها ابنته. فلها قسماته القوية وفمه العريض وقوة الإرادة.

لم تكن تتجاوز الأربع سنوات، ومع ذلك كانت توضح بدون أدنى شك أنها ذات شخصية.

ـ هل وجدتها؟

إنها روث التي كانت تشعر بالحر تحت شمس الفيجي. بدا وجهها البيضاوي أسمر ومفعماً بالحيوية.

ـ كانت مختبئة في بستان الموز.

ضحكت روث وهي ترى نظرة دونا الشقية من فوق كتف أمها.

قالت: أيتها الفتاة حان وقت النوم. ستغني لك روث أغنية لتنامي.

سألت الطفلة: «وتروي عليّ قصة الزجاجات العشر الخضراء؟»

ضحكت روث وهي تكشر لها:

ـ حسناً . . مع أنها طويلة جداً . . تعالي أيتها المتوحشة.

بعد عشر دقائق، خرجت من المنزل ورمت نفسها على كرسي تحت ظل عريشة مرجانية الزهر، وقالت لهيلين:

ـ نامت بلا حراك.. يا إلهي إنها كتلة نار.. من أين هذه الطاقة؟

قالت هيلين بصوت هامس: «إنها كأبيها».

نظرت إليها روث نظرة تفكر. لقد مرت خمس سنوات في ثلاث منها كانت زوجة لكاين واندرز وفي سنتين أرملة.. ولم يتغير شيء بالنسبة لها، إلا بريق سطحي كان نتيجة لثرائه العظيم. المرأة المستلقية قرب بركة السباحة هي نفسها الفتاة التي كبرت مع روث في الميتم.. هيلين الآن أقوى شكيمة وأصلب عوداً بحيث لا يتجرأ أحد على القول في وجهها إنها تزوجت من أجل المال والمركز.

سألت روث:

ـ ما زلت تفتقدين إليه، أليس كذلك؟

ـ أجل.. يومياً.

ـ ألهذا لا تظهرين اهتماماً بأي رجل آخر؟ لا تجيبي عن هذا السؤال إن كنت لا تريدين.

ما زالت رغم مرور السنين تتألم.. وهذا أمر غريب، لقد ظنت أن عنف مشاعرها سيقودها إلى الموت المبكر.. لكن صورة تيرنت بايتون ما تزال تمنع أي رجل من الحلول محله في قلبها.

ردت هيلين بهدوء:

ـ لا.. فمعظم الرجال الذي يطلبون يدي يأتون وفي عيونهم رمز الدولار.

ـ أوه.. هراء! أتعرفين.. لديك مرض اسمه المال.. ما دمت تصدقين أنني أحبك من أجل نفسك، فلماذا سوء الظن هذا بالرجال؟

ـ عزيزتي.. كنت صديقتي قبل أن أتزوج مليونيراً، أنت الشخص الوحيد الذي أثق به فعلياً!

ـ حقاً؟ لكن ماذا عن كل المستشارين الذين يرعون مصلحتك

بكل حذر؟ لا شك أن كاين كان يثق بهم.

ـ يثق بهم إلى درجة أن جعل كل واحد يراقب الآخر، وجعلني أنا أراقبهم.. لم يكن كاين واهماً، صدقيني، لقد بذل ما في وسعه من أجلي ومن أجل دونا.. لكنه أول من اعترف بأن الحقيقة الوحيدة الثابتة في هذه الحياة، هي الموت.

سألتها روث بصوت مرتفع:

ـ لماذا تزوجته هيلين؟ أعرف أن السبب شيء آخر غير المال.

تنهدت هيلين: «أعتقد أن السبب كان الشفقة.. حدثني عن حالته الصحية وقال إنه يريد ولداً.. ولم أدرك كم كان مصمماً على هذا، أو كم كان قاسياً.. لقد تلاعب على مشاعري.. وكنت.. يومذاك.. في حالة نفسية متأزمة.. وكان لطيفاً في وقت ظننت فيه أن لا وجود للطف ولعل هذا ما جعلني أوافق على الزواج».

ـ كان مزيجاً غريباً.. ألم يكن؟

غريب؟ لا.. كان كاين واندرز يعرف ما يريد ولا يترك شيئاً يقف في طريقه حتى موته الزاحف إليه. الآن تدرك هيلين كم أنه تلاعب ببراعة ليضغط عليها للزواج به.. ولم تدرك إلا بعد أشهر طويلة أنه يحبها حباً يائساً كحب شاب في مقتبل العمر. كان زوجاً رقيقاً لها، استخدم خبرته الواسعة ليتغلب على خجلها وتوترها.. ولكن بعد ولادة دونا منعه مرضه من أن يكون حبيباً لها.

وكم حزنت هيلين عليه. بعد موته اكتشفت أنها أرملة ثرية جداً، لذا رغب فيها الرجال.

لكن ما من راغب تلقى التشجيع منها.. وأمام استغراب من كانوا يعتقدون أنهم يعرفون لماذا تزوجت بكاين لم تتخذ حبيباً ولم تظهر اهتماماً بالزواج.

سألت روث: «هل خاب أمله لأنه أنجب فتاة؟»

ابتسمت هيلين:

ـ أبداً.. نظر إليها وضحك، ثم قال: يا إلهي، أرجو أن تكون قوية كما تبدو! وأحبها كثيراً.

ـ لماذا لا تريدين الزواج مرة أخرى؟ لا تقولي ذلك الكلام السخيف عن سعيهم وراء المال.. فأنت تعرفين مثلاً أن اندي برنتيس مولع بك ولديه ما يكفي من مال. وهو ليس الوحيد، فأنت جميلة بل رائعة الجمال. وطالما كنت جميلة فحتى في الميتم كانت تحدث مشاكل مع الأولاد بسببك، لكنك كنت تخافين دوماً من وجهك.

ردت هيلين بحدة:

ـ ليس المظهر كل شيء فاعلمي أنني لا أريد رجلاً آخر. أنا سعيدة بما أنا عليه اليوم.

وهذه أكاذيب بالتأكيد، فقبل خمس سنوات وقعت في حب لورنت بايتون الذي ما تزال تحبه، فوجهه ما زال يلاحقها في أحلامها، وما مرَّ يوم لا تتذكره فيه.

خمس سنوات! كان يجب أن تسجل رقماً قياسياً. لكن لو كان هناك كتاب للأغبياء، فلا شك أن اسمها سيكون في الطليعة.

لا شك أنه متزوج الآن.. ربما بكارين أوكستن، أو بفتاة مثلها.. ولا شك أن عنده أولاداً، أولاداً يشبهون أباهم كما تشبه دونا أباها.

تثاءبت روث:

ـ أما زلت تريدين الذهاب لزيارة أسرة جورديان؟

ـ نعم ما زلنا نريد الذهاب.

ـ أوه.. يا إلهي! أيجب؟ إنهم.. اجتماعيون كثيراً بالنسبة لي.

ابتسمت هيلين ابتسامة صادقة:

ـ لقد قبلنا معاً الدعوة.. حسناً.. أعتقد أنني قادرة على التذرع

بأنك أصبت بصداع، فالحفل ليس للعشاء.. مع أنني أعتقد أن لديهم زائراً.. فهذا ما قالته جوليا، إنه رجل من النوع الذي يجعل ساقيك تصطكان.

ـ لا يمكن تشجيع جوليا على شيء. أعني لديها كيم، الذي هو بلا ريب أوسم الرجال. إنما هذا لا يمنعها من استراق النظر إلى كل رجل تراه.

ـ حينما تكونين متزوجة من رجل مثل كيم يبقى الرجال واقفين على أطراف أصابعهم حذراً.

بدأت الشمس تتوارى بهدوء وراء الأفق فنام كل شيء.. حتى الطيور في أشجار الخبز وتحت ظلال أوراق أشجار المانغو.. ما من نسمة هواء كانت تبرّد الجزيرة الطويلة البركانية المرتفعة بحدة على جرف صخري يقبع خلف منطقة مزرعة جوز الهند المترامية الأطراف.

ولأن كاين رأى فيها مؤهلات كثيرة اشتراها منذ سنوات وقام بتطويرها ببراعة واعتنى بها بمحبة حتى أصبحت مزرعة فريدة من نوعها، تقع ضمن سلسلة الصخور البحرية التي تشكل حاجزاً للجزيرة. وكانت بعيدة عن الجزيرة الرئيسية بحيث وفّرت لسكانها العزلة وعدم الإزعاج.

أما الناس المقيمون عليها فاختيروا بدقة وهم بمعظمهم أثرياء. يسكنون منازل تختلف باختلاف مزاج كل مالك. في كل سنة تأتي إليها هيلين لتستريح فقد أحب زوجها الراحل هذه المزرعة أكثر من أي مكان يملكه.

ذلك المساء، سارت وروث الممتعضة على طريق من المرجان الناعم يفضي إلى منزل آل جورديان الرائع.

قالت روث بحبور:

ـ اسمعي.. أنا قادمة فقط بسبب الرجل الذي تحدّثت عنه

جوليا . . كيف أبدو؟

ـ مذهلة .

ابتسمت روث :

ـ أما أنت فتبدين رائعة الجمال خلاّبة . تبدين باللون الأبيض ملكة .

ابتسمت هيلين أيضاً ففستانها بسيط أما عطرها المفضل «إيشوار» فيثير بعطره غموض بحر الجنوب .

تساءلت : «ترى ماذا سترتدي جوليا؟»

شخرت روث ساخرة :

ـ إذا كان الرجل مثيراً كما تقول جوليا فسترتدي دون شك شيئاً مذهلاً .

ولم تكن روث تبالغ . . فقد تجاوزت جوليا كل حد . كانت ترتدي سروالاً أسود وذهبياً . . إنها مذهلة، ولكنها لم تكن من جعلت هيلين تتنفس بحدة وتتعثر في خطوتها .

اعتصرت قبضة حديدية قلبها . . فمن وقف يستقبلهما بعدما رافقتهما جوليا إلى الشرفة هو تيرنت الذي أمسك يدها وقال بصوته الأجش العميق :

ـ لا داعي إلى القيام بالتعارف جوليا . . فأنا وهيلين صديقان قديمان .

لم تكن عينا جوليا الوحيدتان المفعمتان بالاستغراب .

ـ حقاً؟ متى تمّ تعارفكما؟

رفع يد هيلين يلثمها . كانت العينان الشاحبتان راضيتين وهما ترقبان وجهها المصدوم .

قالت هيلين بصوت أجش :

ـ التقينا منذ خمس سنوات .

ـ كنت يومذاك بلا شك طفلة .

ابتسمت هيلين وقالت عامدة متعمدة:

ـ كان ذلك قبل أن أتعرف إلى كاين.. كنت في التاسعة عشرة.

ترك يدها ليهتم بروث وراح يتعمد أن يسحرها كما فعل مع جوليا. كان يستخدم سحره ليجعلهما عبدتين. وظلّ على هذه الحال حتى أحضر لهم كيم جورديان الشراب فتحولت دفّة الحديث إلى مسار آخر. حتى هذا الوقت كانت هيلين قد استعادت رباطة جأشها، أو على الأقل المظهر الخارجي لرباطة الجأش، من المذهل ما يستطيع أن يفعله المرء حتى وهو يشعر بأنه نال ضربة بين عينيه بمطرقة. لم يكن يفضح توترها إلا ارتجاف بسيط في يديها.. وتحت عباءة السيطرة على النفس، كانت تتألم ألماً جعلها تحتاج إلى كل ما تملك من قوة إرادة لتمنع نفسها من الصراخ. ظنت للحظة أنها توشك أن تقع أرضاً.. وحين رفع تيرنت يدها إلى شفتيه راح كل كيانها يصيح، وعرف هذا لأن عينيه برقتا بانتصار متوحش.

تعرفت روث إلى الاسم، وبعد نظرة حيرة واحدة صبّت اهتمامها عليه وراحت تعبث بشكل ظاهر. وكان هذا أمام سخط جوليا.. لكن هذه الحركة أعطت هيلين فرصة تنفس كانت بأمس الحاجة إليها. بحيث أنها حين وصل الحديث إليها كانت مستعدة له والقناع الاجتماعي في مكانه بثبات.

قالت جوليا: «رأيت دونا تسبح معك هذا الصباح. إنها ماهرة بشكل لا يصدق بالسباحة تحت الماء. لا يرى المرء دائماً أطفالاً في الرابعة قادرين على السباحة كالأنكليس الصغير».

وارتدّت إلى تيرنت:

ـ دونا هي ابنة هيلين. دونا واندرز، ابنة كاين واندرز.. لقد سمعت بالمسكين كاين بالتأكيد.

طافت عيناه الباردتان على هيلين:

ـ طبعاً.. إنه أحد كبار الصناعيين في الجزء الجنوبي من الكرة

الأرضية.. وأنا واثق أن الجميع سمع به.

كانت الإهانة ماكرة، وجدت طريقها إلى ما وراء دروع هيلين.

قالت جوليا: «كان محبوباً.. وهيلين أرملة مخلصة حقاً.. كان زواجهما شاعرياً. التقيا وتزوجا في ثلاثة أسابيع..».

ضحكت ثم أردفت:

ـ ظن كل أصدقائه أنه تورط.

قاطعتها روث:

ـ لكن هيلين جعلته سعيداً.

ـ هذا ما أقوله عزيزتي.. لم أرَ رجلاً يفرح بولده كما فرح كاين حين ولدت دونا.. من المؤسف أنك لم تلدي ابناً هيلين.. لكن يجب أن أقول إن ما من أحد قادر على معرفة ما إذا أصيب بخيبة أمل.

لم تكن جوليا ذكية أو ماهرة، لكنها أعطت كيم ثلاثة أبناء، وربما الأهم أنها حافظت على رشاقتها. وعلى الرغم من تفاهتها فهي محبوبة.

ابتسمت لها هيلين:

ـ لا أظنه أصيب بخيبة أمل.

رفعت كوبها وشربت بعضاً من العصير. أحست أن عقلها ثقيل وضبابي، ووعت ما توجهه لها عينا تيرنت من أسواط لاذعة.

ما إن توارت الشمس وراء الأفق حتى أضيئت الشرفة المسقوفة. كان أحد جوانبها مظللاً بشجرة وارفة، أوراقها كتاج من الحرير الأخضر المزركش، وعطرها يعطر الهواء ويمتزج مع روائح الغاردينيا والزنجبيل، في مزيج استوائي مثير.

وصل زوجان آخران، ثم شقيقتان مراهقتان تسكنان على مقربة من البيت قالتا إنهما كانتا تتمشيان قتلاً للضجر. لو كانت هيلين في أي ظرف آخر لوجدت من المسلي طريقة نظرتهما إلى تيرنت

وتصرفهما وكأنهما امرأتان جائعتان صُفَّ أمامهما الطعام. لكن إعجابهما المفضوح الليلة مزق أعصابها وجعلها متوترة، حتى أحست أنها ستظهر غبية إن لم تسارع في مغادرة المكان.

في هذا الوقت، كانت الحفلة قد بلغت ذروتها ووضع كيم بعض الموسيقى وتناهت الأنغام بين نخيل جوز الهند الطويل، جاذبة بعض السكان الأصليين ومن بين الحضور ممثل تلفزيوني أوسترالي رافقه نجم سينمائي من هوليود، وممثل مسرحي شهير. كانت الفتاتان المراهقتان مثيرتين لكن من الواضح أنهما كانتا تفضلان تيرنت على أي بريق مصطنع للثلاثة الآخرين.

نظرت هيلين إلى تيرنت تتأمله برهبة وكآبة. كيف يفعل هذا؟ نظرت بشوق إلى الوميض في شعره البرونزي وإلى وجهه الوسيم الأسمر وإلى أهدابه الرائعة الكثيفة السوداء التي تظلل عينين واضحتين، قد يقسم المرء أنهما لا تستطيعان إخفاء شيء..

فكرت.. أحبه.. وكأنما شوقها كان يصرخ عالياً إذ التفت ينظر إليها، فتطايرت الشرارات في الجو الدافىء وكأنها شرارات صاعقة، برّاقة، ومخيفة. تصادمت نظراتهما حتى أشاحت بوجهها مرتجفة. بعد كلمة مع روث، ستنسحب بهدوء، ولن يلحظ أحد غيابها.

ولكنها ويا لسوء الحظ هوجمت.. أولاً من النجم التلفزيوني الذي بالغ في إبداء إعجابه بطريقة تمثيلية. ثم من الممثل السينمائي الذي أظهر كل دليل على أنه متيم بها، ولكنها كانت مهذبة معه فتقبلت إطراءه لها بشيء من المرح الجاف الذي أذهله.

تناهى من ورائها صوت تيرنت:

ـ إنه مرحنا الخاص بعالمنا الغريب، ويجب أن تكون مولوداً في الهادىء لتعرف معناه.

ونف ذراعه حول خصر هيلين متجاهلاً إجفالها.

قال الممثل: «أرى هذا».

وظن أنه رأى، فقد أخذت عيناه الماكرتان تنتقلان من هيلين إلى تيرنت وبالعكس.

ثم أردف: «مثل النكات الإنكليزية.. حسناً، لا شك أننا سنلتقي سيدة واندرز.. لقد أحببت جزيرتكم».

ـ هذه ليست جزيرتي.

ما إن ابتعد بضع خطوات حتى تحركت هيلين مبتعدة، فسقطت يد تيرنت عن خصرها. عندئذ ابتسم ابتسامة شنيعة، وسأل ساخراً:

ـ كيف الحال وأنت أرملة جميلة وثرية!

رفعت رأسها إلى الوراء:

ـ وكيف الحال وأنت أعزب وسيم ثري؟ أم تراك تزوجت؟

نجحت مرة أخرى في إجفاله، فاشتد فمه ثم استرخى:

ـ لقد أصبح لديك لسان سليط شرير حبيبتي. ألم يكن زواجك مثالياً كما تظن جوليا؟ هل شحذت لسانك على زوجك الغبي المسكين؟

ـ لا شأن لك بزواجي.

ـ لم تتأخري كثيراً في الزواج برجل آخر.. كم عمر ابنتك؟

ـ بلغت الرابعة منذ شهرين.

ـ إذن حملت بها بعد شهر من اعترافك بالوقوع في حبي. ذاك الحب الذي أقسمت أنه سيكون أبدياً وعلى ما يبدو أن الأبد لا يدوم كثيراً عندك؟ أخبريني أكانت مشاعرك تشتعل معه كما كان يحدث معي؟

سحبت هيلين نفساً عميقاً:

ـ لست مضطرة إلى تبرير تصرفاتي لك أو لأي كان.. أنسيت أنك أذللتني قبل أن ترميني من حياتك؟ حاولت تدمير احترامي لذاتي لذا لا يحق لك أن تحكم عليّ.. بل لم يكن يحق لك ذلك قط

خاصة وأن تصرفاتك ليست فوق مستوى التوبيخ.

تشنجت الكتفان العريضتان.. ونظر من فوق رأسها إلى زاوية بعيدة ثم قال بصوت كسول يناقض نظراته الثاقبة:

ـ أتظنين أنني لا أعرف هذا؟ لقد تزوج آغنوس.

ـ داليا بالتأكيد.

ـ طبعاً.. طالما كان الواحد منهما يناسب الآخر. تزوجا بعد سنة ونصف من.. أخبريني.. أعرف أنك كنت تحبين رجلاً آخر أم كذبت عليه وادعيت أنك الوحيد الذي أحببته؟

ـ نعم كان يعرف لأنني أخبرته.

ـ آه.. فتاة ذكية! وظلّ يريدك؟

ـ ولِمَ يرفضني يا تيرنت؟ كاين رجل ناضج، مثقف منصف في حكمه على الناس. وهل كنت ستهتم؟

ـ ليس بوجه خاص.

ـ أنت حقاً خنزير قذر! بربري متوحش!

ضحك وأحنى رأسه بحيث لامست أنفاسه جبهتها.

ـ هذا ما قلته لي مراراً في تي ناوي.. لماذا الإحباط؟ هل ظننت أن السنوات الخمس غيرتني؟ أبداً هيلين.. ما زلت الخنزير القذر الذي أردتِه.. فهل تغيرت أنت؟

رفعت رأسها لتنظر إليه.. كانت عيناها مسمرتين ببريق عينيه.. ما تزال جاذبيته قوية كما عهدتها من ذي قبل.

دارت نصف استدارة:

ـ أخبرني عن آغنوس.

ابتسم: «إنه بخير.. هما يعيشان في مزرعة الخيل خارج كامبردج مع ابنتيهما الرائعتين. إن آغنوس يستمتع بمحبة لا يستأهلها. لقد أبهجه كثيراً زواجك السريع من الثري.. وطالما سخر مني لسرعة تغير عاطفتك وكان هذا ما ساعد

كبرياءه».

ـ عظيم!

ـ حذار حبيبتي، وإلا خلتك تكرهينني لأنني طردتك.

ابتعدت عن الخطر الذي يمثله قربه منها، وعندما وصلت إلى سياج الشرفة قالت:

ـ أكرهك؟ لا.. أنا لا أكرهك. بل أنا لا أشعر بشيء نحوك..

ـ حسناً، مشاعري نحوك لم تتغير البتة.

اقترب منها بحيث أخفى جسده عنها الشرفة.. رفع يده ليلمس شعرها، فشهقت خائفة أما هو فضحك وأمسك إحدى يديها المرتعشتين ورفعها إلى فمه. خفق قلب هيلين في صدرها.. فقال:

ـ كنا مفتونين ببعضنا.. إنه لمن المؤسف أننا رمينا ما نشعر به وراء ظهورنا.

ردت، وفي كل كلمة فظاظة واضحة:

ـ أنا لا أبحث عن عشيق.. وإن بدأت البحث فسأتذكرك فلا تقلق.

تخطته فتركها دون أن يعيقها. أنار نور المصابيح الذهبي ابتسامته الساخرة.. ورمت كلماتها من فوق كتفها وهي تتجه إلى مضيفتها:

ـ استمتع بعطلتك!

كان التسلل عبر جذوع نخل جوز الهند الرمادية الطويلة أمراً سهلاً وعندما أصبحت في غرفتها تركت لدموعها العنان.. ولكن كان من المستحيل أن تكبح الشوق الذي ظنت أنه دفن إلى الأبد، فقد أمضت الليل كله مستلقية في السرير، تحدق بعينين جافتين ساخنتين إلى السقف، وهي تتساءل ببؤس عما إذا كان لهذا الألم من نهاية.

لكن الشفقة على الذات إحساس حقير. في الصباح تناولت

الفطور مع دونا ثم جلستا على الشاطىء. كانت الطفلة نحيلة قوية في ثوب السباحة الأصفر الصغير. غنت لحناً مرحاً وهي تسبح، وعندما خرجتا إلى الرمال المرجانية البيضاء صاحت بفرح عظيم. في مثل هذا الوقت من الصباح الباكر يكون الشاطىء لهما وحدهما.

كان نخيل جوز الهند وأشجار «ڤاي ڤاي» تحد الشاطىء.. مع أن الوقت صباحاً كانت الشمس دافئة والماء كالحرير. نادت دونا أمها من أطراف الرمال:

ـ تعالي مامي!

ـ قادمة.

لم تع هيلين أن عينيها كانتا تجوبان الشاطىء بحركة سريعة ملؤها الريبة. بالتأكيد لم يستيقظ بعد، فروث لم ترجع إلى المنزل قبل الثالثة صباحاً.. ولكن حتى بعد هذا الوقت كان وقع الموسيقى يتسلل بين الأشجار وبناء على هذا لن يستيقظ أحد في منزل آل جورديان باكراً.

هكذا استراحت وساعدت دونا على انتعال زعانف الغوص في قدميها، وسارتا معاً كما يسير البط إلى بحر كالزجاج حتى استحال تحديد مكان بدء الماء وانتهاء الرمال.

كان الجرف الصخري المرجاني بعيداً جداً عليهما لتسبحا نحوه.. ولكن كان هناك صخور مرجانية في الخليج، حولها أسماك مرجانية وكأنها جواهر حية.

بعد عشرين دقيقة لامست هيلين كتف ابنتها، وأشارت برأسها إلى الشاطىء.. من تحت نظارة جهاز الغطس الصغير عبست دونا ولكنها رافقت أمها بدون تلكؤ.. فقد تكون قوية الإرادة وميالة إلى نوبات غضب ولكنها تعرف أن طوافها اليومي في أرض الخيال هذه، يعتمد على طاعة أمها.

فوق الرمال مجدداً جلستا بين الأمواج الصغيرة الملتفة، وخلعتا

الزعانف الصناعية من أقدامهما، وأقنعة التنفس وراحتا تتحدثان بهدوء حتى وقفت دونا قائلة:

ـ ثمة قادم نحونا مامي!

* * *

٨ ـ نار في الذاكرة

عرفت حتى قبل أن تلتفت من القادم. كان كل عصب في جسمها يشتد مع تقدمه..

قال تيرنت: «مرحباً».

نظرت دونا إليه بريبة، ولكن حينما ردت أمها التحية استرخى وجهها الصغير وباتت مهتمة بالقادم.

قال وهو جاثٍ على ركبتيه:

ـ لا شك أنك دونا.

وقفت دونا ثم خطت خطوتين: «أجل.. ما اسمك؟»

ـ تيرنت.

لمعت خصلات شعرها وهي تهز رأسها.

ـ أتعرف مامي؟

انتقل بصره إلى هيلين ثم أجاب: «أجل.. أعرفها جيداً».

هزت دونا رأسها مجدداً، ونظرت إليه بفضول:

ـ أين تقيم؟

ـ عند جوليا وكيم جورديان.

قاطعتهما هيلين:

ـ حبيبتي كفى. يجب عليك ألا تطرحي أسئلة كثيرة.

وقف تيرنت كالطود فوقهما ومدّ يده:

ـ وكيف لها أن تعرف إن لم تسأل؟ تعالي انهضي.. لا يمكنك

الجلوس في الماء وكأنك حورية.

وقفت دون مساعدته، وعانت من نظراته الساخرة فقالت غاضبة:

ـ كنا نهمّ بالنهوض.

ـ ألن تعرضي عليّ ما أشربه؟ ليس في بيت جورديان كائن يتحرك، وأكاد أموت عطشاً.

نظرت هيلين إليه بعداء صامت.. ولكن دونا ردت عليه:

ـ أجل.. تعال لتشرب بعض القهوة.. تحب مامي القهوة لكنني لا أحبها.

رفع تيرنت حاجبه متسائلاً:

ـ لا؟ وماذا تحبين؟

ـ الماء.. والحليب.

التقط أدوات الغطس بيد ومد يده الأخرى، فراقبت هيلين بذهول كيف أخذتها ابنتها.. لكن علام كل هذه الدهشة؟ إنه مجرد امتداد لفتنته.

قال لهيلين:

ـ أنت هادئة هذا الصباح.. ألم تنامي جيداً ليلة أمس؟

ردت كاذبة: «بل نمت نوماً عميقاً.. وأنا دائماً أحس بثقل إذا نمت كثيراً».

من الأفضل أن تعترف بالحقيقة.. كانت ابتسامته ساخرة بشكل ظاهر، ولكنه لم يقل شيئاً أكثر حتى وصلوا إلى المنزل.. ساعتئذ نظر إلى ما حوله يقوّم المكان بعين ناقدة، ثم عادت عيناه إلى مضيفته المجبرة على استضافته وقال بلهجة مقيتة:

ـ يا للترف! إنه يناسبك. هل بناه زوجك لك؟

صممت على عدم الاستجابة للاستفزاز:

ـ لا.. ضع ما في يدك هناك إن سمحت.. وتفضل إلى

الداخل.

كانت الأرض مكسوة بالسيراميك البارد الشاحب. مشت هيلين أمامه إلى حيث وجدوا روث تحت مظلة قرب بركة السباحة تتثاءب ولكنها لم تذهب لدى ظهور تيرنت على الساحة.

قالت مبتسمة: «هاي. كيف حالك؟ كانت حفلة رائعة».

ـ نعم كانت رائعة.

قالت هيلين بصوت المضيفة الباردة:

ـ جاء تيرنت ليشرب القهوة.. ولعلك تستطيعين إغراءه ببعض الپاپاي أو المانغو روث.

قالت دونا بمرح:

ـ هناك التوست كذلك. أتريد بعض اللحم والبيض؟

ضحك: «لا.. شكراً.. سأرضى بالتوست والقهوة».

ضحكت روث: «أوه.. هيا الآن.. لا أظنك متخماً حتى الآن من ليلة أمس! لم تأكل الكثير.. يا إلهي! أراهن أن عدة معدات تعاني من الألم هذا الصباح.. ذلك الممثل، هيلين، أراد أن يعرف كل شيء عنك».

أحست هيلين بأنها القشة التي قسمت ظهر البعير.

ـ حقاً؟

صبت القهوة وهي تقول:

ـ لعلك صددته؟

ـ بالتأكيد.. قلت له إنك تقدسين الوحدة كما تقدسين حياتك.. وإن على أي شخص يقيم هنا أن يتعلم هذا بسرعة.. إنه متباه قليلاً بنفسه. ألم يكن متباهياً؟ مع أنه وسيم وصوته رائع كالمخمل الأسود.

علق تيرنت ممازحاً، وامتزج ضحكهم، وشاركت دونا بسعادة، وهي تلتقط قطعة پاپاي. من بركة السباحة، انعكست أشعة

الشمس عليهم، وداعب نسيم الصباح المنعش الدافىء أجسامهم..
نظرت هيلين إلى قهوتها، وأحست برغبة في الصراخ. في الواقع تصورت المنظر.. سترتعب روث وتذعر دونا.. أما تيرنت! آه سيبتسم تلك الابتسامة الساخرة، وسيفهم بالضبط سبب صراخها.

كيف يجرؤ؟ كيف يجرؤ على المجيء والنظر إليها بعينيه القاسيتين الجميلتين ثم يقول لها بدون كلمات إنه لا يشعر نحوها بغير الازدراء والقرف، ورغبة هي الإهانة بحد ذاتها؟

قالت دونا: «مامي.. مامي.. هل أستطيع الذهاب؟»

ـ ماذا.. حبيبتي؟

تنهدت دونا ونظرت إلى تيرنت بصبر وأناة:

ـ تغوص أحياناً في الأحلام.. مامي.. سيذهب تيرنت إلى نقطة «المراقبة» غداً.. هل أستطيع الذهاب معه؟

ـ أوه.. حبيبتي.. لا.. تيرنت لن..

ـ وعد أن يصحبني.

قالت له نظرتها: اللعنة عليك! واحتجت:

ـ لكنه مكان بعيد، وستتعبين كثيراً.

ـ أستطيع امتطاء جواد.. فهو سيستخدم جواداً. لماذا لا ترافقيننا أنت وروث؟ نستطيع حمل الغداء معنا والمنظار أيضاً.. آه! أرجوك مامي!

وضع تيرنت فنجان القهوة:

ـ ولمَ لا؟ إنها طريقة ممتعة لقضاء اليوم. أما بالنسبة لجوليا فكلما زاد العدد ازداد المرح.

لقد حشرها في زاوية وأفضل طريقة لحرمانه من متعة الانتصار هي أن تتجاهله.

قالت بخفة:

ـ ولمَ لا؟ هل رتبتم أمر الجياد؟ أم تريد مني أن أتدبرها بنفسي؟

قال بلطف: «سأتولى كل شيء».

لكن حين غادر ضحكت روث وقالت:

ـ حسناً.. عرفت الآن أنه رجل مغرور.

ـ أوه.. وأنت فعلاً محقة.

بعد الغداء نام الثلاثة كالعادة.. ثم أصرت دونا على رحلة لالتقاط الأصداف البحرية.. هكذا تجوّل الثلاثة على الشاطىء بعكس اتجاه منزل آل جورديان، قبل أن تلعبن لعبة المطاردة بين نخيل جوز الهند.

بعد العشاء قرأت هيلين كتاب شعر، أما روث فراحت تغسل شعرها ثم قضت الوقت بالإصغاء واستمعت إلى آخر اسطوانة اشترتها وقرأت كتاباً شاعرياً.

أخيراً استحمت هيلين وأخذت حبوباً منوّمة وأوت إلى فراشها منهكة، وكأنها أمضت يومها كله بالعدو. ولكنها في الواقع كانت تعدو هرباً من الذكريات ومن نفسها، وعلى الأخص مما يوحيه وجود تيرنت.

كان القرار أن ينطلقوا في رحلتهم باكراً قبل أن يشتد الحر، وكان أول من سمع وقع حوافر الجياد دونا الثائرة بجنون..

قالت تتوسل ربما للمرة العشرين:

ـ أوه.. هيا مامي، روث.. هيا! سنتأخر!

ضحكت هيلين ثم راحت تثبت القبعة على الرأس الصغير قائلة:

ـ لا حبيبتي.. لن نتأخر ما دمت هنا.

لم يجلبن معهن غير حقيبة ثياب وبعض الحاجيات الضرورية. في الخارج تحت ظل النخيل كانت الجياد تقف بهدوء تدير رؤوسها بفضول نحو المنزل، أما دونا فكانت تركض نحوها في الممر.. ألقت جوليا عليهن التحية وعلى وجهها نظرة استغراب. كانت

عيناها تنتقلان من تيرنت إلى هيلين.

ـ صباح رائع.

ـ إنه لكذلك.

لم تكن هيلين فارسة ماهرة كجوليا لكنها تقدمت كثيراً منذ وضعها تيرنت على ظهر بيلا. ابتسمت للرجل الفيجي الذي ساعدها على الصعود إلى السرج، وسألته عن زوجته التي أثلجت قلبه بإنجاب ابن له.

بعد لحظات من التنظيم كانوا على استعداد للانطلاق، معهم ابن جوليا الأكبر وهو ولد لطيف اسمه واين في عمر الثامنة من عمره. وكان بين المجموعة الممثل المسرحي أيضاً، نظر إلى فرسه نظرة كئيبة ثم طفق يسرد قصة طويلة مضحكة عن اضطراره إلى التعامل مع جواد معه عدته الكاملة وذلك في فيلم تاريخي مثّله في إسبانيا.

ما أروع وأمتع الفروسية في المزرعة، فالعشب يخنق وقع حوافر الجياد أما الطيور حولهم فتتطاير والفراشات تحوم وفي بعض الأحيان تتناهى إليهم رائحة جوز الهند المجفف وهي الدليل الوحيد على أن معظم الجزيرة مؤسسة عمل رابحة.

ما إن خرجوا من أراضي المزرعة حتى غطت مزروعات الجزيرة الأرض المرتفعة وغيَّرت التراب من رملي إلى تراب بركاني أحمر خصب تقطعه بين الفينة والأخرى صخور تكونت من تفجرات البراكين التي شكلت جزر الفيجي منذ قرون طويلة. هنا كان ينبت الموز وثمرة الخبز ذات الثمر الكبير الثمين.

ثم أصبحت الأرض شديدة الانحدار واختفى الجو الزراعي.. أما الطريق فدخلت إلى غابة غنية بالحياة كثيفة، تقبض الصدر رغم جمالها وتدرج ألوانها تحت الظلال.

قالت دونا بفرح: «الأخضر.. كل ألوان الأخضر مامي.. كم

بقي أمامنا حتى نصل إلى القمة؟»

ـ مسافة طويلة حبيبتي. . هل أنت متعبة؟

كانت نظرة احتقار للتعب هي الرد. . إذ لم تكن دونا على استعداد للاستسلام حتى ولو ربطوها فوق الجواد الصغير. . ولم يكن من الطبيعي أن يكون لدى طفلة مثل هذا العزم. . ارتدّ تيرنت ونظر إلى هيلين.

ـ ما بالك؟

ـ لا شيء.

ولكنه لم يخدع. قال لها وهو ينظر إلى الطفلة:

ـ إنها تتدبر أمرها جيداً. . بل أرى أنها أكثر منك قدرة على التحمّل فأنت تبدين وكأن النسيم قادر على أن يرميك أرضاً.

لو كان رجلاً لطيفاً تقابله للمرة الأولى لاستطاعت التوصل إلى شيء من التوازن. .

ـ سأتجاهل هذه الملاحظة التي تشير إلى أنني أبدو رهيبة. كيف ترى جزيرتنا؟

أدهشه ردّها الجريء ولكنه لم يفضح شيئاً من دهشته.

ـ تعجبني كثيراً. . ملاذ رائع للأثرياء، لا ضغوطات بل محيط رائع الجمال، ونشاط كاف لملء الفراغ لئلا يسأم أحد.

قالت بحبور: «هذا إطراء متهكم غامض، ألا يعجبك الثراء. . تيرنت؟ أم لعلك تكره من هم من صنفك وتنظر إليهم بازدراء؟»

تحركت الكتفان العريضتان دونما اكتراث، ولكن في هاتين العينين كانت نظرة خبيثة حادة كالسهم.

ـ أظنك فهمتني خطئاً. . فكما أشرت، أنا آخر من قد لا يعجبه الثراء. . هذا إن جناه بشرف.

ـ تعني ورثه؟

اللعنة، اللعنة، لم تقصد أن تقول هذا. إنه استفزاز مفضوح!

ابتسم ابتسامة ضيقة، وركز عينيه على وميض الذهب في خاتم زواجها:

ـ هذا ما لا يقلقني.. فإن كان الورثة غير مؤهلين بددوه. إنّ ما أكرهه هو اللهاث وراء الثراء أو السلطة، والتخلي عن كل احترام للذات في سبيل ما قد يشتريه المال.

آه! يعرف كيف يجرح في الصميم. إن كل كلمة قالها مدروسة بدقة لتقع كالسهم في القلب، تاركة سمها الذي يبقى سنوات. عدلت عن قرارها بلعب دور اللطف.

ـ واثقة أن الجميع يمقت مثل هؤلاء.. إن من يفتقر إلى احترام الذات هو وصمة عار للجنس البشري وهذا عذاب أكثر من كاف. أليس كذلك؟

رد ساخراً: «كم أنت محقة».

كادت تعجز عن منع نفسها من صفعه على وجهه لتمسح هذه الابتسامة الوسيمة. ولكنها أجبرت قبضتيها على الاسترخاء وكبحت جيشان عواطفها.. فيما بعد، عندما تصبح في منزلها تستطيع أن تشتم وتصرخ وتبكي.. ثم فكرت أن الطريقة الوحيدة لتحمل تيرنت في أثناء إقامته في الجزيرة هي تجاهله.

سألته: «كم تنوي البقاء هنا؟»

كان يجب أن تعرف، وبناء عليه سيكون هذا آخر سؤال شخصي تطرحه عليه. من الآن وصاعداً ستكون زوجة كاين واندرز.

ـ طالما رغبت جوليا في استقبالي.

عندما سمعت جوليا اسمها طلبت أن تعرف سبب ذكرها. بعدما قال لها السبب قالت:

ـ حبيبي تيرنت.. يمكنك البقاء قدر ما تشاء. أخبرتني أمك في رسالتها الأخيرة أنك لم تحظ بعطلة لائقة منذ سنوات! والجزيرة مكان رائع للراحة.

قال ببرود: «إنها هكذا فعلاً.. ممتازة.. وكأنها حلم يتحقق.. لو خططت لكل هذا لما سنحت لي فرصة أفضل من هذه».

بدا السرور على جوليا، لكن هيلين عرفت أن كلماته هي أقرب للحقيقة.. وحثتها كل غرائزها على الهرب، على الرحيل عن فيجي قبل أن ينفذ ما خططه لها.

أحست للحظة بالخجل من هذا الذعر.. فمن يكون حتى يخيفها؟ وماذا بإمكانه أن يفعل؟ لا شيء.. إن كتمت عنه مقدار ما تجرحها ملاحظاته السامَّة فلن يدرك أنها بعد هذه السنوات ما تزال تحبه بعجز كما كانت.

حينما تزوجت كاين بدأت في برنامج للتثقيف الذاتي، وهذا ما أذهله ولكنه شجعها.. ربما أدرك أنها شعرت بأنها دخيلة وهي في تي ناوي حين كانوا يتناقشون في الكتب التي لم يسبق أن سمعت بها، وفي أشخاص كانوا لها مجرد أسماء.

في البداية كان هذا أمراً شاقّاً عليها.. ولكنها تحمست مع الوقت وراح جمال ما تقرأه يحفر نفسه في عقلها، ويزيد جمال حياتها.

خاصة الشعر. عندما قرأت للمرة الأولى ديوان شعر السير والتر رايلي وعلى الأخص منها بعض أبيات أملت أن تكون زائفة.. ولكنها تبدو الآن أبياتاً تنبؤية.

الحب الحقيقي كالنار المستعرة
في الذاكرة يحترق
لا يمرض، لا يشيخ، لا يموت.
وعن نفسه أبداً لا يفترق.

وهذا ما هو عليه حبها.. نار مستعرة تخبو أحياناً وتصبح جمراً ولكنها موجودة دائماً تحترق تحت سطح الحياة اليومية.. فإن

استسلمت لها فقد تحرقها وتحولها رماداً.

اتخذت قراراً جديداً فنظرت إلى ما حولها شامخة الرأس، فتمتم تيرنت بصوت هامس لم يسمعه أحد:

ـ يبدو أنك اتخذت قراراً ما.

ضحكت وأرادت أن تكون عيناها صافيتين صريحتين:

ـ لا.. لكنني تذكرت أبياتاً من الشعر.

ارتفع حاجب أسود:

ـ وهل من عادتك تذكر الشعر؟

تدخلت روث بصوت جاف:

ـ دائماً.. وهي تدرس الشعر كذلك.

ـ الرومانسي.. هيلين؟

تجاهلت سخريته:

ـ ولمَ لا؟ لقد أصبح الشعر الرومانسي من ضرورات العصر.. ألم تكن تعرف هذا؟

قاطعتها جوليا بمرح:

ـ تيرنت حبيبي.. إن النساء جميعهن رومانسيات.. كلنا على استعداد للتضحية في سبيل حب يشبه الذي يصفه الشعر.. لكن عندما لا نجده نرضى بالزواج.

ضحك الجميع على قولها حتى زوجها كيم..

أصبح خرير المياه المندفعة من ارتفاع شاهق أقوى. وما إن وصلوا إلى قمة صخرية من صخور سوداء تنمو فيها المعترشات المتسلقة والسرخس والأوركاديا البرية الخضراء البدائية، حتى غدا الخرير موسيقى في الآذان.. كانت ساقية صغيرة تسقسق من فوق قبل أن تندفع من فوق ضفتي الصخور إلى حوض واسع، نظر إليه الجميع بشوق.. فوق سطح البحر كان الهواء بارداً، لكن الأبرد في المناطق الاستوائية يبقى أكثر حرارة، كما قال كيم، ولم يكن الوحيد

الذي التصق قميصه بظهره.

ـ أنسبح الآن أم في طريق العودة؟

أجاب الممثل الذي كان يشعر بالحر أكثر من الجميع:

ـ لما لا نسبح في الذهاب والإياب؟ بما أنني لاجىء مسكين من النصف الشمالي في الكرة الأرضية فلست واثقاً من قدرتي على البقاء بدون أن أذوب إن طالت الطريق أكثر من هذا.

اتخذت مطالبة دونا بالشرب القرار عنهم.

ـ جوادي بحاجة إلى ماء.. أيمكن أن أتركه يشرب؟

ـ فلنفعل هذا نحن كذلك.

أوضحت لهجة تيرنت أن الجواد يجب أن يشرب أولاً.. وتساءلت هيلين عما إذا كانت الوحيدة التي أحست بالتوبيخ، وفيما كانت تلحق به سمعته يشرح لدونا أن عليها ألا تسمح لمطيتها أن تشرب كثيراً.

ـ لماذا؟

ـ لأن للجياد معدة غريبة.. فإن تعرضوا للحرارة ثم شربوا كثيراً آلمتهم معدتهم وهذا الألم يسمى «مغصاً» وهو مؤلم كثيراً.

قد يكون أباً ممتازاً.. ولكنها سرعان ما أبعدت الفكرة عن رأسها، إنها مؤلمة ومؤثرة.

بعد عشر دقائق كان الجميع في المياه الباردة يسبحون. وكانت دونا تضحك بشدة وهي تعتلي كتفي الدليل الفيجي.. أما هيلين فكانت مستلقية بهدوء على ظهرها تحدق إلى السماء.

بعد قليل راحت تسبح. كانت ذراعاها تتحركان بشدة وعنف حتى أوقفها شخص ما وقال شيئاً ضحك به على اصطدامهما، واعتذرت:

ـ آسفة غاريت.

ـ أوه.. من دواعي سروري.. فلا تلاحقني دوماً بمثل هذا

التصميم امرأة جميلة مثلك.

ضحكت:

ـ إذن لن أقول لك إنني ما كنت أعرف أنك هنا.

ـ لا.. لا تفعلي هذا.. أتظنين أن من الأفضل اللحاق بالآخرين، أم تفضلين البقاء هنا وحدنا؟

ـ من الأفضل الذهاب على ما أعتقد.

ولأن تيرنت كان يراقبهما جعلت في كلامها نبرة العبث قليلاً بما يكفي.

وفيما راحت تتسلق الضفة أخذت المياه تتدفق منها.. نفضت رأسها وراحت تمرر أصابعها في شعرها.

رمى لها تيرنت منشفة وكانت خطوط فكه بارزة.

كان ما تبقى من الرحلة في غابات كثيفة أخرى، يفصلها لحظات من الجمال ورهبة خفيفة. دفعهم سوهي الفيجي إلى الإصغاء إلى وقع أقدام تهشم ما على الأرض، وهمس: خنازير برية!

قال كيم: «طالما رغبت في اصطياد خنزير بري. هل أنت بارع في صيدها تيرنت؟»

ـ كنت أصطادها وأنا صبي صغير غبي.

ـ حسناً. فلنر ما يمكن أن ننظمه.. أتود المشاركة غاريت؟

ـ أنا جاهز دوماً للقيام بمغامرة جديدة.. كيف يمكن أن نرتب أمر التقاط الوحش؟

قال سوهي: «نقتله بالسكين».

ابتسم لمّا رأى تعابير وجه الممثل..

أضاف: «سنأخذ الكلاب ونقتفي أثرها قبل طلوع الشمس».

شارك غاريت بالضحك على نفسه، ولكنه كان عازماً على عدم التراجع.

في القمة أمسكت هيلين يد ابنتها وضغطت عليها فقد كانوا يشرفون من هنا على الغابات وعلى السفوح.

كان المنظر من النوع الذي يشعل في النفس حلم يقظة جنوب الهادي.. كان البحر متدرج الألوان بشكل كثيف حتى أنه سلب السماء لونها.. مع ذلك ففي لونه الأزرق تشكيل مطرز لعدة ألوان.. الجاد الأخضر، والجمشت، وجواهر أخرى، إنها بانوراما متألقة منتشرة مع جواهر أخرى في جزر كجزيرتهم.. جنوباً بدت جزيرة فيجي الرئيسية الضخمة «فيتي ليفو» وشمالاً رأوا ثاني أكبر جزيرة، «فانوا ليفو». أشار سوهي إلى أماكنها وذكر أسماءها ثم راح يشرح لماذا ليس على أي سابح أن يخشى أسماك القرش في مياه الفيجي.

قالت دونا باهتمام: «لكن يجب أن تنتعلي الحذاء فوق الصخور».

كاد وجهها الصغير يختفي وراء المنظار وسألت جوليا:

ـ أيمكنها الرؤية من خلال المنظار حقاً؟

ضحكت هيلين: «لا أظن، لكنها تحب التظاهر».

ابتسمت جوليا ونظرت إلى ابنها واين المشغول بتأمل قارب صغير يقع على بعد مئة ميل.

التفتت هيلين فالتقت بالسخرية الباردة في نظرة تيرنت وتذكرت مناسبة أخرى وقفت فيها فوق تلة عالية في تي ناوي تنظر إلى أرض جميلة كهذه وإلى بحر واسع.

للحظات تبادلا النظرات فجأة، ثم ابتسم ابتسامة ملؤها الازدراء.

لن أتركه يدمر هنائي! ولكن قوة الإرادة لم تكن دفاعاً قوياً ضد عدائه وقسوته وعلى الرغم من عزمها على عدم التأثر بعدائه تلاشى شيء كبير من إشراق ذلك اليوم وبهجته.

لذا كانت مسرورة عندما وصلوا أخيراً إلى المنزل، وكانت دونا قد استسلمت لتعبها في طريق الإياب وأنهت الرحلة قبل تيرنت تتمتع بنفسها بشكل واضح. . كبحت هيلين غيرتها. . أوه. . وهل تغار من ابنتها؟ ولكنها أحست بسعادة لتوقف القافلة الصغيرة.

حين ودعت دونا تيرنت، رفعت وجهها الصغير وقبلته بحماس ثم تعلقت ذراعاها بعنقه حتى أبعدها بلطف ساحر ليعطيها إلى هيلين. . أما تعابير وجهه فكانت غريبة وكأنه مذعور من ردة فعله تجاه الطفلة.

* * *

٩ ـ لهذا يكرهها

لا بد مع نشاط كنشاط اليوم أن ينام المرء بلا حراك. ولكنه ويا لسوء الحظ لم يكن كافياً لهيلين التي لم تستطع النوم طوال الليل إذ استيقظت في ساعة متأخرة، وبعدما شربت الماء وأمضت نصف ساعة في قراءة كتاب اضطرت إلى الاعتراف بأن النوم جافاها.

إن ظلت في الفراش فستقضي الوقت في تثاؤب لا طائل منه. ألقت نظرة إلى الساعة فوجدت أن أمامها ثلاث ساعات حتى الفجر، ثلاث ساعات ستقضيها في التفكير في رجل لن تتمكن من الحصول عليه أبداً.

نهضت من فراشها بعزم مفاجىء.. في الخارج كان كل شيء هادئاً وساكناً أما الصوت الوحيد المسموع فهو هدير الأمواج المتكسرة على الصخور المرجانية.. ولكن ما من نسمة هواء كانت تحرك الأشجار، فالجو ساخن وجاف، كأنه يداعب بشرتها.. في السماء قمر طعن في السن يحث أصبح نوره شحيحاً لا يكاد يرى معه شيء. عبقت رائحة أزهار شجرة اليانع الصفراء المخضرّة بقوة. وبدا وكأن كل أرجاء الجزيرة تستحم بهذا العطر الاستوائي.. التقطت هيلين زهرة وتابعت المسير نحو الشاطىء.. بعد لحظة قامت بحركة لترميها بعيداً، فالرائحة داعبت أنفها بشكل لا يطاق.

إنها تعرف ما تريد.. فليست المرة الأولى التي تلاحقها فيها مثل هذه المشاعر المتوترة التي لا تطاق.

اكتشفت أنها تحب تيرنت بجنون، كانت تنسى حبها هذا بإغراق نفسها بالدراسة. . ولكن حبها هذا كان يستيقظ أحياناً من مهده فتضطر يائسة إلى الاعتراف بشوقها إليه.

كانت تستطيع نسيانه في خضم الأنشطة التي تقوم بها ولكنها الليلة لا تستطيع نسيانه فهو لا يبعد عنها ألفاً ومئتي ميل. بل هو هنا، نائم على بعد ياردات عنها. . تقلصت معدتها كما كانت تتقلص كلما كانت تنظر إليه طوال اليوم الطويل المرهق.

همست لنفسها: أحبك! كانت خائفة حتى هنا من أن يسمعها أحد. . في يدها الزهرة العطرة التي كانت تهم برميها بعيداً. صاحت: أوه. . يا للعنة! ما الفائدة؟ ودستها في ثنية فستانها.

التصقت الرائحة العطرة بأصابعها. . فمسحت يديها بجانبيها ثم انطلقت بالمسير على الرمل الناعم الثقيل. بعد دقائق توقفت وخلعت الحذاء الجلدي من قدميها وحملته بين أصابعها. . في منتصف الشاطىء كان هناك صخرة ذات سطح مسطح يسهل التسلق إليه، وما إن أصبحت فوقها حتى قررت البقاء. جلست هناك واضعة ذقنها على ركبتيها المنتصبتين ضامّة يديها إلى كاحليها، تحدق إلى الخليج.

بدا الجرف الصخري خطاً نحيلاً شاحباً أمام البحر القاتم. . استطاعت أن تسمع صوتاً خفيفاً يأتي من مكان بعيد. فطفقت عيناها تجوبان السماء حتى رأتا طائرة نفاثة تخترق أنوارها الكاشفة حرمة هذا الليل البهيم. إنها الثالثة والنصف. . يا للمسافرين المساكين!

جاءها صوت تيرنت من ورائها:

ـ في الطريق إلى هاواي.

أطلقت صيحة رعب صغيرة وهبَّت على قدميها مصدومة.

سألها بسخرية كريهة:

ـ أخفتك حبيبتي؟ لا. . لا تهربي. . بدوت لي وحيدة وأنت

جالسة على صخرتك . . أكنت تقلدين حورية البحر وتنتظرين بحاراً ساذجاً ليمر بك؟

ـ لو كنت أنتظر لوجدته .

ولكنها لم تكن تعي ما تقول .

ـ لا . . لست ساذجاً أبداً هيلين ولم أكن كذلك يوم عرفتك أو حتى قبل أن أعرف كم بإمكان المرأة أن تكون غادرة .

سألته وهي تتقبل اليد التي مدها إليها :

ـ لماذا كرهتني إلى هذا الحد؟

ـ لقد سبق أن قلت لك السبب .

هزت رأسها : «لا . . أستطيع فهم كراهية أمك . . لقد اختارت داليا لآغنوس . . ولا شك أنها أدركت بعد أيام على إقامتي هناك أنني غير مناسبة له خاصة وأنني لا أنتمي أبداً إلى بيئتكم الراقية» .

ـ كنت كسمكة خارج الماء . .

صاحت : «لم يمنحني أي منكم الثقة بأنني قد أتعلم بسرعة» .

ـ لا . . فعلى الرغم من أن زوجك كان قادراً على صنع معظم الرجال أو تحطيمهم، لم يساعد في قبولك ضمن العالم الذي يدور فيه .

تجاهلت هيلين إهانته . في الأصل قد يكون الأمر هكذا . لكنها صادفت ما فيه الكفاية منذ ذلك الوقت، ولم تعد تلك الفتاة الساذجة غير المثقفة التي كانت تعتقد أن الحب قد يتغلب على أي شيء .

عادت تسأل بإصرار :

ـ لماذا أصررت على الوقوف ضدي؟ أعرف أنك ظننتني أسعى وراء مال آغنوس . . ولكنني أرفض أن تعتقد أن كل فتاة تتقرب منه لا تهتم بسوى ماله . . أنت لم تكن على استعداد لإعطائي براءة الشك من اليقين . هي نظرة واحدة ثم كرهتني . . ولكي أرضي فضولي أريد أن أعرف السبب .

- إن بريق الحنكة هذه هو مجرد قشرة خارجية، أليس كذلك؟ نظرة واحدة كانت كافية، هيلين. هي نظرة واحدة وبتُّ أريدك. لستُ مضطراً لأقول لك إن جمالك نادر ومثير للاضطراب. . غاص قلبي ما إن رأيتك قادمة نحوي وفكرت. . آه. . يا الله! ها قد أتت المتاعب. . ولقد كنت المتاعب عينها بكل تأكيد.

- وهل تكره وتحتقر عادة أية امرأة تجذبك؟ ألهذا لم تتزوج حتى الآن؟

أغضبتها ضحكته فشدت يدها منه. قال: «أحب أن أمسك يدك حبيبتي. . اعلمي أنني لم أكن منجذباً فقط إليك بل كنت مجنوناً بك. كان أخي يحبك، أو ظن أنه يحبك. . ولم أحتج إلا إلى ثانيتين لأفهم شيئين».

- وما هما؟

- أنك لا تحبينه. . وأن ما قفز حياً من أول نظرة إليك، كان مشتركاً بيننا وهذا ما عرفناه جيداً. لقد تعلمت أن أكرهك لأنك رفضت أن تتركي آغنوس يفلت من ذلك القيد الحريري الذي حكته له حتى تتأكدي مني، ولكنني لم أكن تحت رحمة مشاعري كثيراً كما كنت تأملين، لذا اضطررت إلى تأليبنا ضد بعضنا بعضاً.

صاحت مذعورة:

- لا! هذا غير. . كيف تصدق هذا عني؟

شدها لتقف، وأدارها بحركة سريعة مؤلمة. . وسأل بفظاظة:

- وماذا أصدّق غير هذا؟ لماذا لم تقولي لآغنوس إنك لا تريدينه؟

- لأنه طلب مني ألا أفعل. . أراد مني أن أتظاهر. . كان يحس بأنه مدفوع جداً إلى ما لا يريده.

أغمضت عينيها أمام التكذيب الواضح في عينيه.

قال ببرود:

ـ كنت تعرفين. كنت تنتفضين كلما اقتربت منك وكنت تفضحين نفسك كلما لمستك. لقد اختبرت مشاعرك، ووجدتك تريدينني ومع ذلك تركت آغنوس معلقاً حتى تتأكدي من الحصول عليّ. أظننت أنك خدعتني حقاً حبيبتي؟ لقد طوردت من قبل كثيراً فالعديدات من النساء يردن رجلاً يعتني بهن طوال حياتهن وهن مستعدات للوقوع في حب حسابه في المصرف.

قالت بصوت ملؤه الألم:

ـ أوه.. أيها الأحمق! أتصدق فعلاً أن هذا كل ما كنت أريد؟

ـ لا حبيبتي.. كنت تريدينني قطعة جميلة من زينة كبيرة لقالب حلوى. ألم يكن كذلك؟ أخبريني.. هل شعرت تجاه زوجك ما شعرت به تجاهي؟

ما إن ذكر كلمة «زوجك» حتى فهمت الإهانة. فأجابت بشدة وغضب صارخة:

ـ أجدك بشعاً.. بشعاً.. مقرفاً.. كريهاً! كان كاين أفضل منك بعشر مرات.

ـ وكان أغنى مني أيضاً.

دس يديه حول عنقها فحجب رأسه ضوء القمر الخفيف عنها.. كانت غلطتها الأولى أنها حاولت مقاومته لأنه لم يتأخر كثيراً في استخدام قوته ليخضعها.. وقفت جامدة.. تقاوم نفسها فقط. فقد استجابت كمادة جافة سريعة الاشتعال.

جذبها إليه بشغف فتبادلا عناقاً عاصفاً.

فكرت مذهولة: إنه لي.. وعرف هو هذا.. ولهذا يكرهها.. المعرفة هذه كانت مذهلة إلى درجة أنها لم تعد تتظاهر بمقاومته.

ببطء تحررت منه. فتركها وكان وجهه يكشف عن عمق مشاعره، وبدا في عينيه شيء يحترق. راح كيانها يرتعش ولكنها استدعت كل احتياطها من قوة الإرادة والكبرياء.

أخيراً قالت تنظر إليه: «آسفة».

ـ ولماذا لا؟

ـ أنا كمعظم الناس على غير استعداد لتقبل نبذك. ربما نسيت كيف تصرفت معي آخر مرة ولكنني لم أنسَ.

أصبح غضبه ملموساً ولكنه مثلها جاهد ليسيطر:

ـ وإن قلت لك إنني لا أنوي نبذك؟

سألت وعلى وجهها ابتسامة حكيمة:

ـ أبداً؟ هل تطلب يدي تيرنت؟

كشر فمه فبانت أسنانه:

ـ زواج؟ لن أتزوجك...

ثم صمت فقالت بسخرية مضاعفة:

ـ لا.. أعرف.. حسناً، صدق أو لا تصدق تيرنت.. لست أهتم كثيراً في كلا الحالين. منحتني السنوات الخمس قدرة وقوة. لقد قمت بجهدك لتحطيمي مرة، ولن يحدث هذا مجدداً.

لم يلمسها: أتظنين هذا؟ وإن قلت لك إن تحطيمك هو آخر ما أريد، فماذا تقولين؟

ـ لن أصدقك تيرنت.

طوال الطريق فوق رمال الشاطىء، كانت تحس بوطأة نظرته فاقشعر بدنها وكأنها في خطر داهم.

وبما أنها على الأرجح في خطر، فقد عرف كلاهما أن الحد بين القبول والرفض ضيق جداً، ومن السهل تجاوزه.. وهذا ما جعلها تتساءل لماذا تركها تذهب..

عندما استيقظت بعد بضع ساعات من القلق عرفت السبب.. يريدها تيرنت بإرادتها، ضائعة، خاضعة، لتكون سيطرته وسيادته عليها كاملة.. استلقت دقائق طويلة ووجهها على الوسادة تتأوه وتلعن القدر الذي رتب مثل هذا اللقاء الذي لا يطاق.

لكنها لن تمنح تيرنت سعادة بأن يعرف أنها هزمت أمام مطالب قلبها. . وتستطيع أن ترى صراعاً مماثلاً يجري في دمه. عندما كانت عيناه تقعان عليها باكتئاب كان في أعماقهما شوق ترافقه سخرية بالنفس.

استحال عليها تجنبه فمع مرور الأيام الحارة كانا يلتقيان طوال الوقت، على الشاطىء أو خلال ركوب الخيل، أو الغطس. وأقامت جوليا حفلة تنس انتهى فيها الأمر إلى أن تلعب هيلين ضد تيرنت وإحدى الفتاتين من آل كاليهان.

قال شريكها بحبور وهو يمسح عرق جبينه بكم قميصه:

ـ آسف. . يا إلهي كم الجو حار؟ ماذا نفعل ونحن نرهق أنفسنا هكذا؟

ـ نحن مجانين.

لدى انتهاء اللعب حاولت أن تبتسم وهي تصافح تيرنت ولم تحاول تجنب نظرته، مع أن شرارة انطلقت من عينيها بسبب ابتسامته الساخرة. لقد استمتع بهزيمتها. . حسناً! إذا كانت هزيمتها ترضي غروره فليستمتع.

وجاء العقاب سريعاً. . فحينما كانا يتوجهان إلى خارج الملعب وضع ذراعه حول كتفيها بطريقة متملكة. إن حاولت جذب نفسها لأجبرها على البقاء ولو بالقوة إن لزم الأمر.

نظرت إليه بغضب وسخط فقال لها بصوت مرتفع يستطيع سماعه الجميع:

ـ لا بأس حبيبتي. . سيكون حظك أفضل في المرة القادمة.

قال شريكها بمرح: «هذا إن كان شريكها شخصاً آخر. إنها تستحق أن تلعب مع شخص مثلك تيرنت».

ـ هذا ما كنت أحاول إقناعها به.

وقرأت التسلية الباردة في عينيه.

الشكر لله على نعمة الأولاد! فدونا تجاهلت الصمت الذي ران ووقفت أمامه تقول بعناد:

ـ أريد أن تحتضني أنا أيضاً.

وأضحك هذا الجميع، وأجبر تيرنت على التقاطها لكن دونا لم تكتفِ بهذا بل قالت بوقار:

ـ وأمي أيضاً.

وأمام رعب هيلين جذبها تيرنت وعانقتهما.

بعدما تمكنت هيلين من التحرر منه بدون ضجة، قالت جوليا مفكرة:

ـ مؤثر جداً.. أتعلمين هيلين؟ يجب أن تفكري في أب لها، فالأولاد بحاجة إلى أب يرعاهم.

ـ ربما.. ولكنني لا أحتاج إلى زوج.

بدت جوليا غارقة في التفكير، ثم قالت:

ـ أنت بحاجة فعلاً.. فالنساء جميعهن بحاجة.. آه! أعرف أنك تمضين وقتك في الدراسة الجامعية وفي أعمال أخرى.. ولكن هذا كله مجرد ملء فراغ.. أليس كذلك؟

كيف تشرح لها أن العمل الخيري والدراسة الجامعية أمران مثيران يدفعان المرء قدماً؟ لقد تربت جوليا على هدف واحد في الحياة هو الزواج، وهي سعيدة قانعة في إتمام هذا الواجب. إنها تنظر إلى حرية المرأة نظرة عدم فهم.

ردت هيلين ببطء:

ـ ليس في الواقع جوليا.. فلست مثلك.

وافقتها الرأي قائلة: «لا، لست مثلي».

أخفت هيلين ابتسامة حزينة.. كانت تعرف أن جوليا كالعديد من الناس تتساءل عن دوافعها للزواج بكاين.. من عرفها حق المعرفة أدرك، وهذا ما أدركته جولي، أن التفسير البسيط لم يكن

صحيحاً ولكن ما من أحد منهم عرف السبب . .

في المنزل، سألتها روث بمكر :

ـ أيحاول تيرنت إزعاجك بكلامه القاسي؟

ابتسمت هيلين بسخرية : «لا . . كان ذلك عقاباً بسيطاً» .

ـ أنتما تعرفان بعضكما معرفة وطيدة . لا أحاول التطفل ولكنني أعرفك وأعرف أنك تغيرت كثيراً منذ ظهر على السّاحة .

ـ أوه . . هيا الآن . .

ـ لست مضطرة لإخباري بشيء إذا كنت لا تريدين . . أنا لا أريد إزعاجك . . إنما إذا كان هناك ما أستطيع أن أفعله . منذ عدت من نيوزيلند تواريت وراء قناع مضى عليه حتى الآن زمناً طويلاً فبات جزءاً منك . . ولكنني عرفتك قبل أن تضعي ذلك القناع . . وطالما تساءلت عن السبب والآن عرفت . . السبب تيرنت، صحيح؟ إنه السبب بعدم نجاحك مع أخيه .

أشاحت هيلين بوجهها :

ـ آغنوس . . أجل، كان هو السبب .

ـ وما الذي يريده الآن؟

ـ أي شيء يستطيع الحصول عليه . . ما حدث قبل خمس سنوات مات وانتهى ولن أعيد نبشه من القبر .

شخرت روث ساخرة بعدم تصديق :

ـ أوه بالتأكيد! مات وانتهى . . حقاً! حين أقف بينكما أحس أن شعاع لايزر يخترقني، أو شعاعاً من نوع ما يجتازني! الجو يهمس بينكما، مع ذلك تقولين إنك لا تريدين نبش شيء . . واجهي الوقائع هيلين . . فما لا تريدين نبشه لم يمت أصلاً، بل كان متوارياً وراء الباب .

هزت كتفيها بعدم اكتراث : «لا أستطيع فعل شيء» .

ـ دونا معجبة به، وتعرفين أنها لا تميل إلى أي كان . . فلماذا لا

تمنحينه فرصة؟ إنه أكثر الرجال إثارة.. تانك العينان وتلك الابتسامة! مليئة بالمعرفة مع ملامح القسوة.. وهو رجل تستطيعين الوثوق به كل الثقة.

- أوه.. حقاً؟

ضحكت روث على سخرية صديقتها:

- لا.. ليس مع النساء، مع أنني واثقة أنه أهل للثقة مع امرأة شخص آخر.. لماذا.. ماذا.. أوه!

وصمتت، كان عقلها يعمل بسرعة وهي تحدق إلى وجه هيلين الذي ابيضّ فجأة، وكررت:

- أوه.. فهمت.. أجل.. هذا ما ظننته!

التقت هيلين نظرتها بلا وجل.. لم تكن روث ذكية جداً.. ولكنها ذات عقل حاد يؤازره اهتمام خاص بالناس من قبلها وهما ما جعلاها بعيدة النظر فيما يخص الناس.

أردفت:

- أجل.. أظنني فهمت.. مسكينة هيلين! ومسكين تيرنت.. من كان مستقيماً وشريفاً صعب عليه أن يتحمل ما يخرق هذه الاستقامة، فهم لا يسامحون بسهولة.

قالت هيلين بصوت مرتجف: «أنت سريعة الاستيعاب».

تنهدت روث:

- يا للأسف.. ستكونين أنت وهو رائعين معاً.. فلديه القوة التي تحتاجين إليها ولكنك لن تتركيه يسيء معاملتك. إن زوجة مطيعة متعلقة به ستضجره، وأنت بحاجة إلى من لا يحبك من أجل مظهرك فقط وينسى أن تحت ذلك الجمال امرأة.

لكنها لن تعاني مجدداً من ذلك النبذ المؤلم المرير الذي دفعها إلى كاين. ومن الأفضل أن ترفضه.

قالت وملء صوتها العزم والتصميم:

ـ لا مستقبل لنا . . لذا دعينا من الموضوع . أيمكن؟ على فكرة، أليس كوك بيلتون مثيراً للاهتمام؟

تحول اسمرار روث النحاسي إلى احمرار وردي :

ـ يظن كوك بيلتون أنه لا يحتاج إلى أكثر من إشارة بإصبعه لتهرع إليه الفتاة .

ـ حسناً! أرى أنه احتال ليحصل على دعوة إلى هنا في ذات الوقت . .

هبت روث واقفة بسرعة وراحت تمرر يديها على أطراف فستانها، وكأن راحتي يديها أصبحتا لزجتين فجأة :

ـ لا تقولي هذا! يا له من وقح، يطاردني حتى هنا وهو يعرف أنني . . أنني . .

ـ يعرف أنك تحبينه!

تغضن وجه روث المسكينة :

ـ سأتغلب على مشاعري .

ـ لكن لماذا؟ لا تقولي لي إنه لا يبادلك المشاعر . إنه شغوف .

ـ أجل، لكن هذا لن ينجح لأن عائلته لن يعجبها هذا .

رفعت هيلين حاجبيها : «لماذا؟» .

ـ لأنهم أثرياء، وأنا لا أملك شيئاً . . ثم هم يحيون وسط بيئة اجتماعية فيما أنا يتيمة لا عائلة لي وهو إلى ذلك رجل ذكي، وأنا فتاة عادية أكسب رزقي من عمل غير ذي قيمة .

تنهدت هيلين، وقالت مشفقة :

ـ أعرف مشاعرك، ولكنك لا تثقين بنفسك . اعلمي أن والديه عصاميان فكل ما يملكانه جنياه بجهد، أما البيئة الاجتماعية التي تخافينها فهي طريقتهم في المرح . . ولا شك أنهما غير متكبرين . . ماضيك لا يعني شيئاً . . أما بالنسبة لذكاء كوك، فهو لا يريد خريجة جامعية . . بل يريدك أنت، يريدك لبراعتك ولطيبة قلبك .

ـ إنه مغرور كثيراً.

ضحكت هيلين:

ـ إذن، أرهقيه قليلاً.. إنما لا تحاولي خداعي أو خداع نفسك.. قد يكون مدللاً قليلاً لأنه وسيم ولطيف، ولأنه يحصل على ما يريد بسهولة، لكنه ليس مغروراً.

ـ أنت حكيمة جداً في ما يختص الناس، لماذا لا تستخدمين قليلاً من هذه الحكمة على نفسك؟ الحياة التي تعيشينها غير طبيعية، فليس من الطبيعي تجاهل الرجال كما تفعلين.. أنت امرأة دافئة، محبة، مثيرة للاهتمام.. ولكنك تخافين الخروج من وراء قضبان السجن الذي صنعته يداك.. ما تحتاجين إليه هو شخص لا يقبل الرفض رداً على طلبه، شخص لا تستطيعين تجميده.. شخص يساعدك على العودة إلى الجنس البشري.

ـ وهل لديك فكرة عمن قد يكون هذا الشخص؟

ردت روث مجفلة، وجهها المستدير الجميل يبدو محبطاً من السؤال الذي طرحه تيرنت بصوته الساخر، وتمتمت بحذر ترفض النظر إلى هيلين التي أصبحت شاحبة بيضاء.

ـ آسف.

لكنه لم يكن آسفاً البتة، وابتسم لروث:

ـ لا تكوني مرتاعة هكذا.. أنا واثق أن هيلين لن تصرفك من الخدمة لأنك تكلمت بصراحة.

تشنجت روث ونظرت إليه غاضبة:

ـ بالتأكيد لا.

وجدت هيلين القوة على الوقوف وقالت ببرود ولا مبالاة.

ـ ألم تسمع يوماً بشيء اسمه طرق الباب تيرنت؟ كان يمكن أن تدخل في وقت نتراشق فيه ما يؤذي، إذ ينتهي بي وبروث الأمر إلى التراشق بالأشياء في أثناء مشاجرتنا.

ومض شيء ما وكأنه إعجاب في عينيه وما هي إلا لحظة حتى ارتدّ إليها:

ـ حاولت لفت انتباه أحد، ولكنكما كنتما مشغولتين بالصراخ فلم تسمعاني.. هل أخرج وأجرب حظي مرة أخرى؟

ضحكت: «لا.. لا تكن سخيفاً.. أتحب احتساء شيء؟»

ـ عصير بارد.

وفيما كانت تصب له عصير الفاكهة، أعادت التأكيد على قرارها بأن تعامله بكياسة المضيفة اللبقة.. وما عليها سوى أن تأمل أن يتركها وشأنها.

لن يكون هناك المزيد من الرحلات في ضوء القمر، ولا المزيد من المواجهات العاطفية.. بل كل ما سيكون منذ الآن فصاعداً التعامل بلباقة في العالم الاجتماعي، البارد، المهذب، والحديث المهذب المدروس بدقة الذي لا يمس أية مشاعر.

***

١٠ ـ أعطني سبباً لأقتلك

ظنت روث أنها جنت. . لكنها قامت بدورها بكل ولاء رافضة تركهما بمفردهما وكانت تزج أنفها في كل حديث وتتصرف كأي سكرتيرة اجتماعية ماهرة أو كصديقة مخلصة.

كان تيرنت بالتأكيد أذكى من أن لا يدرك ما يجري. في المرة الثالثة عندما كانت روث برفقة رجل ما بحيث أصبحوا أربعة شع وميض من عينيه واعداً بالانتقام. . لكنه لم يعد يتعامل مع هيلين كراو الصغيرة السخيفة الساذجة. . فالسيدة كاين واندرز امرأة رابطة الجأش، بارعة في تجنب المواقف الاجتماعية المحرجة. كانت تعبث مع غاريت الذي كان يستشهد لها بشاكسبير لأنه عرف جيداً ماذا يأسر اهتمامها. إنه رجل متزوج ومطلق مرتين ولا يبحث عن زوجة ثالثة، يعشق حريته. . ولكن جمال هيلين واندرز كان كفيلاً بتحريك دماء أي شخص كان لذا كان ضحكها معه يرضي غروره. . حتى ولو كانت، كما قرر، كالعديدات من النساء اللاتي لا يحببن سوى جمالهن.

كانت هيلين سعيدة بما يراه في شخصيتها. كان هو ودونا متفقين، ولكن لتكون صادقة مع نفسها وجدت أن دونا تفضل صحبة تيرنت وقد أوضحت ذلك مراراً.

كانا يبحران معاً فوق مياه الخليج التركوازية يتزلجان على الماء، وعرفا غاريت على ركوب الأمواج.

قالت له هيلين وهو يراقب ركوب الأمواج بشيء من الإحباط:

ـ إنها موهبة.. لو استطعت الإبحار لاستطعت ركوب الأمواج.. كل ما عليك هو أن تتذكر أنك تقود اللوح برفع مقدمته.. تمسك بالصاري وادفع بقدميك إلى الإمام فيتجه اللوح مع الريح، وإن جذبته بالاتجاه المضاد اتجهت عكس الريح.

وضع غاريت يديه على خصره وهي تعلمه:

ـ أوه.. حقاً؟ هذا كل شيء؟ حسناً حبيبتي.. أرني كيف؟

كانت هيلين تحب ركوب الأمواج.. فالانزلاق على سطح الماء كسمكة طائرة أمر مثير والحرية الصامتة تنعشها. في أحد الأيام كان البحر هادئاً وكانت تسمع صوت دونا وصراخها المرتفع فارتفع قلبها.. وأحست مجدداً أنها تستحق أن تعيش.

في الواقع، كان كل شيء الآن كما كان في تي ناوي، فهي بالقرب من تيرنت تشعر بالعذاب.. ولو رحل لأصبح عالمها مكاناً مهجوراً.

لذا كانت تبذل جهدها لخلق حاجز مرتفع بينهما. وتخفي قلبها وراء جدران مرتفعة من عدم الاكتراث والكياسة الباردة.

على الشاطىء ضحك غاريت بحبور لها. كان الفضول مستتراً ولكن عينيه راحتا تنتقلان من خطوط وجهها الباردة الصافية إلى أسارير تيرنت القاسية، وقال:

ـ تصورانه وكأنه أمر سهل.

نظرت إليه هيلين ثم نقلت بصرها بحثاً عن روث:

ـ أنت لا تريد أن تحاول.

قال تيرنت بصوت ملؤه الرضى:

ـ لقد عادت إلى المنزل، ورافقتها دونا.

استقامت هيلين:

ـ حسناً.. إذا أردت الانطلاق..

ـ أريد.

التقط اللوح بسرعة، وبعد دقائق كان يركب الموج فراح الجسد الرشيق الرياضي يرسم صورة عكسية أمام الشراع الملون.

راقبه غاريت، ثم قال: «يا له من شاب!»

أجابت: «أجل».

ـ لماذا لا تخرجينه من بؤسه؟

انتفضت، فضحك غير نادم:

ـ قولي لي إن أردت أن أذهب إلى الجحيم. قولك ذاك سيكون سخيفاً، إنه يريدك وأنت تريدينه ولكن لن يتنازل أحدكما أبداً.. أعرف أنه من غير اللائق أن أقول هذا الآن، لكنه لن يستسلم.. لذا أنت مضطرة للاستسلام.. الأمر بهذه البساطة.

سألته بصوت جاف:

ـ وهل تظن أنك مؤهل لإعطاء مثل هذا الرأي؟

ـ لماذا تعتقدين أنني على قمة الهرم هيلين؟ فأنا عدا مظهري الجميل وخفة حركتي مراقب بارع للطبيعة البشرية. البشرية بشكل عام هوايتي.. أنا أراقب الناس.. ما من أحد منكما بسيط. بل الواقع أنكما معقدان وأنا أرى بالضبط لماذا أوصلتما نفسيكما إلى هذا الوضع. قد تكون الكبرياء أحياناً أقوى من الحب إذا لم تحذري منها.

ضحكت بمرارة: «حب؟ ما الذي يجعلك تظن أن للحب شأناً بنا؟»

ـ ألا شأن له؟ إذن لماذا يغار بجنون من أي شخص يعبث معك؟ أنظري، إنه عائد الآن.. لا يحب أن يراك واقفة معي بمفردنا مدة طويلة.

قالت بفظاظة:

ـ قد تكون مراقباً ممتازاً للطبيعة البشرية.. وأنت رجل في غاية

اللطف . . إنما لا شأن لتيرنت مع أحد . . عادة . . أوه!

قفز اللوح في الهواء وانقلب . . واختفى تيرنت تحت الأمواج . . ضحك غارث ولكن حينما لم يظهر رأسه فوق سطح الماء قال بقلق :

ـ لا شك يجب أن . . .

ـ هناك صخور مرجانية .

وهرعت على الرمال نحو البحر الفارغ، وسبقها غاريت وغاص في الماء بكل سرعة وقوة، فكان إن قطع الخمسين يارداً إلى حيث كان لوح التزلج يعوم كفراشة مكسورة الجانح .

كان المكان عميقاً وصافياً، وما إن وصلت هيلين إلى المكان حتى كان غاريت قد غاص إلى الأعماق وصعد مرة أخرى، وكان يجرّ معه تيرنت الفاقد الوعي .

قال شاهقاً :

ـ أستطيع إخراجه . . اذهبي إلى الشاطىء!

وجدت هيلين أن الذعر يُنتج كمية كبرى من هرمون النشاط إذ وصلت إلى الشاطىء دون أن تدرك ما فعلت . .

شهقت هيلين وهي تساعد غاريت على جر جسد تيرنت المسترخي إلى الرمال :

ـ أوه . . ظهره! هل هو . . ؟

خرت على ركبتيها . أمسكت مؤخرة عنقه ودفعت رأسه إلى الوراء وذقنه إلى فوق . . ولكن الصدر العريض ظلّ هامداً . . أبعدت عنها رعبها وانحنت تقبله قبلة الحياة وبدأت تتنفس فيه، وتسد أنفه . . أما غاريت فتقدم ليمسك يد تيرنت وليجسّ نبضه ثم ما لبث أن جسّ النبض في عنقه .

ـ فتاة رائعة . . ما زال قلبه يخفق . . سيكون على ما يرام، لا أظنه بقي تحت الماء أكثر من دقيقة . . وهذا عظيم بالنسبة لمعايير

السلامة.

ما هي إلا ثلاثة أنفاس من هيلين حتى ارتفع صدر تيرنت.. ثم شهق وارتفع صدره وحده.. وخف شحوبه وبدأ يسعل.

ـ اقلبيه على وجهه بسرعة.

بذلا جهداً مشتركاً ليعيداه إلى الوعي.. رأسه إلى جانب واحد، ويده قرب وجهه.. وبدأ يتقيأ.

انهارت هيلين فوق الرمال الناعمة وراحت ترتعش وبدأت دموعها بالجريان على وجهها.. سمعت أصواتاً بعيدة، وأسرع غاريت يدفع رأسها إلى ما بين ركبتيها، وترنح العالم أمامها.

بعد ساعة كان تيرنت في طريقه إلى المستشفى وهيلين في فراشها ترتعد.. فمها جاف.. وعقلها يفكر بطريقة جبانة في ما حدث.

أطلت دونا رأسها من الباب:

ـ مامي.. مامي.. هل لي بالدخول للبقاء معك؟ تقول روث إنك قد تحبين هذا.

يا لروث! إنها حكيمة، ذكية وحبيبة.. عندما احتضنت جسد ابنتها الدافىء خفَّ ذلك الارتجاف الرهيب وأخذ يتلاشى.

قالت دونا: «مسكين تيرنت.. ماذا سيفعل في المستشفى مامي؟»

ـ سيستريح قليلاً ثم سيفحصون رأسه ليتأكدوا من سلامته.

ـ لقد ارتطم رأسه بالصخور المرجانية.. أليس كذلك؟ أهذا هو سبب تلك الدماء؟

ـ أجل..

قال الصوت الصغير باهتمام:

ـ لهذا نرتدي الصندل. أكاد يموت يا مامي؟

شد الألم جسم هيلين:

ـ كان يمكن أن يموت لولا مساعدة غاريت. . لقد جره إلى الشاطىء.

ـ وأنت جعلته يتنفس مجدداً. يعجبني تيرنت. إنه لطيف. . وأنا مسرورة لأنه لن يموت. . إنه لطيف. .

وتثاءبت.

فيما كانت مستلقية في الفراش الكبير، أخذت تحدق في السقف تصغي إلى أنفاس ابنتها الهادئة. . في ساعات الألم هذه اتخذت قرارها. . لقد قال لها غاريت: أنت من يجب أن تتنازلي. . وما كان يقصده أن تيرنت لن يستسلم أبداً. . ولكن هذا ما عرفته دائماً. ففي الجزيرة كانت تقاوم غرائزها مع أنها حاولت أن تجد وسيلة للقبول بما كان يعرضه دون أن تخسر كرامتها، واحترامها لذاتها.

الآن، باتت تعرف أن احترام النفس لا يعتمد على رأي أحد بها، بل على رأيها هي بنفسها. . وهذا ما يترك الكبرياء وحدها. فبعدما رأت جسده المسترخي القريب من الموت عرفت أن الكبرياء لم تعد تعني لها شيئاً. . فلو مات. . لو مات. . لمات شيء فيها كذلك. . لأنه جزء منها.

أتقدر على القبول بمشاعره وبازدرائه في آن معاً؟ أتقدر على الخضوع له وهي تعلم أنها بالنسبة له امرأة باعت نفسها في سبيل المال؟

سيكون هذا أمراً صعباً. لكنها ستتمكن منه. . وربما بعد فترة ما سيفهمها. . تستطيع تحمل كل شيء في سبيل أن يطلب تيرنت يدها، وستجعله يعلم أنها بزواجها به تتنازل عن ثروة هائلة من أجله.

عاد من المستشفى في اليوم التالي، وعندما اعترضت جوليا المذعورة لأنه أراد السير على الشاطىء تجاهل اعتراضها. . كان

الوقت عصراً، والطقس حاراً.. وكانت روث ودونا تلتقطان الصدف قرب الجرف الصخري مع غاريت، واليان زوج ماري.. قضت هيلين الوقت في مراقبتهم من تحت ظل جوز الهند، ولكنها قررت فجأة العودة إلى المنزل فبدأت بالمسير. وقفت في أرضها ما إن رأت تيرنت قادماً إليها.

قالت: «مرحباً.. تبدو على ما يرام.. كيف رأسك؟»

ـ لا أحس حتى بصداع.

قاومت اندفاعاً مجنوناً إلى لمس الضربة الظاهرة على رأسه، وقالت برقة: «ينفع المرء أن يكون رأسه صلباً».

ابتسم: «فعلاً..»

نظر حوله للمرة الأولى وسأل:

ـ أين روث؟ هل توقعت أن أعود بهذه السرعة؟

ـ كان يجب أن أعرف.

ـ فعلاً.. أعتقد أن عليّ أن أشكرك لأنك أنقذت حياتي.

هزت كتفيها حرجة وقلقة ثم ارتدت على عقبيها، تسير بين شجر الموز العريضة أوراقه.. من فوقهما كانت أشجار جوز الهند تلوح بلطف.. إنها جنة هادئة خضراء، وكانت تدرك أن لا كائن حي على مدى البصر. وحتى لو جاء أحدهم عبر ممر الشاطىء لن يستطيع أن يراهما.

سرّع خطواتها شيء يشبه الذعر، وقالت من فوق كتفها:

ـ لا تكن سخيفاً تيرنت.. لا أحتاج إلى شكرك.. إن أردت أن توجه شكرك إلى أحد فليكن إلى غاريت. فهو الذي أخرجك وجرك إلى الشاطىء.

أوقفتها يده التي وضعها على كتفها، وأدارها إليه:

ـ لقد شكرته.. لماذا تهربين مني؟ هل أخيفك؟

ـ ومتى لم أكن أخاف منك؟

قال ببرود كريه:

ـ أنت لا تعنين ما تقولين حقاً. . أتذكر مناسبات كثيرة نسيت فيها كل خوف. .

حدقت إليه، ثم ارتدت غاضبة فقال بصوت أجش وأصابعه تطبق بألم على عظام كتفها:

ـ لا تعطيني ظهرك أبداً!

نظرت إلى الوراء نظرة زرقاء باردة ساخرة:

ـ لقد أعطيتك ظهري منذ خمس سنوات ورحت تراقبني وأنا أرحل. أتذكر؟ يومذاك لم تقل كلمة لتمنعني، لذا أجد تصرفك الآن في غاية الغرابة.

تسمّر في مكانه وكأنه علق في قبضة إحساس قوي استطاعت الإحساس به على بشرتها. . قوة سوداء تتجمع لتؤلمها. خافت، ثم فكرت في كاين الذي واجه الموت بوقار وشجاعة فاطمأنت. عندئذ ارتفع ذقنها وواجهت عينيه.

قال من بين أسنانه: «كلما رأيتك أرى الدولار نصب عيني».

ـ أتظن أن لهذا أهمية عندي؟ أنت مهووس بالمال.

ـ لا بل أنا مهووس بك.

ـ أما زلت تلومني لأنك أحببتني رغم إرادتك؟

ظنت أنها دفعته أكثر من اللازم، فقد ضم أسنانه بشدة ثم أخرج من أعماقه صوتاً أجشاً وكأنه صوت حيوان يتضور ألماً. . ثم شدها إليه، وأحنى رأسه ليقول:

ـ أذكر كل شيء. . أنا لم أنسَ قط. . يا إلهي لا أدري ماذا تفعلين بي! لم أشعر قط نحو امرأة بمثل ما أشعر به تجاهك، إنه كالألم الذي يدق في جسمي بلا توقف. إن لقاءنا ذاك في تي ناوي ترك أثراً في حياتي وجسدي وغيّر طريقة تفكيري. . كلما تعرّفت إلى امرأة، كنت أعرف ما سيحدث. . كنت أعرف أن وجهها سيتغير

وأنني سأنظر إلى عينيك الواسعتين اللتين كانتا تأسرانني إلى الأبد وكنت أعرف أنني سأسمع صوتك.

أدارها بين ذراعيه حتى أصبحا وجهاً لوجه وراحت يداه تحتضنان وجهها، أما صوته فتهدج. ازدادت غيرتها وحتى توقف كلامه المرير وضعت يدها على فمه، وقالت هامسة:

ـ أصمت! كيف تجرؤ.. أستطيع قتلك..

ـ وما كانت عليه برأيك مشاعري عندما عرفت أنك تزوجت؟ أردت أن أقتلك أيضاً.. ولو رأيتك لقتلتك. كنت تعرفين أنك لي.. ألم تعرفي هذا؟

هزها وهي مغمضة العينين، فأجابت:

ـ لقد توسلت إليك أن تتركني معك.. ولكنك طردتني وقلت لي إنني..

ـ لا.. لا.. لا حبيبتي..

هذه المرة ارتفعت يده تمنع كلامها.. وتأوه:

ـ أوه.. يا إلهي.. أنت تخيفينني.. حتى التقيتك كنت دائماً المسيطر، القادر على أخذ ما أريد.. ما من امرأة عنت لي شيئاً أكثر من رفيقة جذابة أسلي بها نفسي، ثم أحضرك آغنوس وكنت كالجوهرة في إصبعه. عندئذ ضحكت عليّ كل شياطين جهنم! وما كان عليّ إلا أن أسمع صوتك لأحس ببراثن الجوع تنشب مخالبها في أعصابي.. أحب آغنوس.. لكنني ليلاً ما كنت أستطيع إلا تصور فتاته بين ذراعي. والأنكى أنني عرفت أنك تشعرين بما أشعر به. ولكنك لم تفعلي شيئاً.. لماذا؟ لماذا لم تقولي له إن كل شيء انتهى بينكما؟

ارتعشت وهي تسمع القسوة في صوته..

همست: «تيرنت.. يجب أن.. تيرنت.. من الأفضل أن نعود إلى المنزل أرجوك!»

رد بوحشية:

ـ أنت تدفعينني إلى الجنون! معك أفقد كل سيطرة على نفسي.. أيعجبك هذا؟ لقد كرهت واقع أن ولائي لأخي كان يمنعني من الاحتفاظ بك، وعذبتني حتى بت غير قادر على التحمل، ثم تركتني.. ولكنك بقيت معي دائماً أينما حللت.. تكملين تعذيبي.. إلى أن..

صمت ليسحب نفساً عميقاً ثم اتسعت عيناه وهو يرى خوفها، أحنى رأسه المتكبر ليريح جبهته على كتفها:

ـ لا!

لامست بلطف بشرته الحارة.. بدت خيوط الشمس تتدفق في خصل ذهبية بين مظلة أوراق الشجر، وطارت فراشة صغيرة في الجو.. وعاد تيرنت إلى الكلام مجدداً:

ـ حاولت جاهداً أن أكرهك، أن ألومك لأنني أريدك. ولكنني علمت أنني سأصل إلى هذه النتيجة.. أنا أتوسل إليك من أجل حبك. لا، لا أستطيع المقاومة أكثر.. لا.. لا تقولي شيئاً.. ليس الآن. أرجوك، ضميني فقط.

وضمته تقدم إليه الراحة التي كاد ينساها، وقالت مبتسمة:

ـ أترى.. أستطيع أن أضمك أفضل بكثير بين ذراعي.

رفع رأسه:

ـ أحبك.. فماذا سنفعل في هذا؟

تحركت أصابعها على رأسه:

ـ ماذا تريد أنت أن تفعل؟

ـ أريد أن أبقى هنا معك لأضمك هكذا سنوات وسنوات. ولكن أعتقد أن مسؤولياتنا المنفصلة والمتحدة ستقف وراء هكذا مشروع.. أتشعرين برغبة في الزواج بي؟

ردت حالمة: «وهل أشعر برغبة في الجنة؟ اسمع! هناك شيء

واحد تيرنت».

رفع رأسه لينظر إلى وجهها المتورد الجميل:

ـ وما هو؟

ـ إن تزوجت ثانية خسرت ما يرد عليّ من أموال كاين. إنَّ ما أحصل عليه بالكاد يكفيني ويكفي دونا.. لقد ترك كاين المال لها في الائتمان.

ظلّ صامتاً مدة طويلة، فتجمد قلبها.. ثم سأل بلطف:

ـ وماذا في هذا؟

ـ ألا اعتراض عندك؟

ـ وعلام أعترض؟

ـ حسناً.. لن تتزوج بأرملة ثرية، سآتي إليك خالية الوفاض.

قست العينان الدخانيتان وأصبحتا كالصخر الغرانيت.. لكن كلماتها جعلته يغمضهما وكأنه يتألم:

ـ هل تحاولين الانتقام مني على الإهانات التي كنت أرميك بها؟ أتظنين أنه يهمني غناك أم فقرك؟ الله وحده يعلم. أنا لست فقيراً، وأخشى أن أكون رجلاً شديد الغيرة.. فإن جلبت معك جواهر اشتراها لك غيري فلن أسمح لك بوضعها على جسمك.. احتفظي بها لدونا.. فمن الآن وصاعداً ستستخدمين فقط ما أعطيك إياه.

ـ ودونا؟

رد على سؤالها الهامس بابتسامة ملتوية:

ـ أوه.. تعجبني.. لديها جرأة أمها وأسلوبها.. لا يمكنني أن أكره طفلة.. وأن أغار منها. أنا ودونا متفاهمان.

فكرت ثم قالت باسمة:

ـ أجل.. لقد أحسست بالغيرة في اليومين الماضيين من ابنتي، وهذا إحساس رهيب، صدقني.

ضحك: «جيد.. تستحقين ذلك.. إن ذاك الجو من الترفع

الذي التزمته كان كوشاح أحمر أمام ثور هائج».

ارتدّ رأسه وأصغى، ثم وقف يشدها عن الأرض لتقف معه، وقال بامتنان:

ـ هذا لا يزعجك أبداً.. أليس كذلك؟ ستتخلين عن كل شيء إكراماً لي.

ردت متجهمة الوجه:

ـ كل شيء عدا دونا.

وأدركت أن كاين ببعد نظره قد خطط لهذا كي يتأكد أن زواجها في المرة الثانية سيكون من أجل الحب لا المال.. في هذه اللحظة أملت أن يكون الآن سعيداً أينما كانت روحه كما هي الآن سعيدة.

قال تيرنت: «لا أتوقع منك التخليّ عنها.. تعالي أيتها الساحرة قبل أن يرسل أحدهم فريق تفتيش عنا.. قد لا تهتمين بسمعتك ولكنني أهتم بها».

ضحكت.. وعادا معاً إلى المنزل.

في تلك الليلة، بعدما آوت دونا المرهقة إلى فراشها أخيراً، واعتذرت روث، جلسا على الشرفة العريضة يراقبان القمر ويصغيان إلى حمامة مشتاقة للحب تسجع سجعها الرتيب.. رفعت هيلين رأسها عن كتف تيرنت، وسألته حذرة:

ـ كيف ستكون ردة فعل أمك عندما أصل إلى المنزل، حبيبي؟

أذهلها بإجابته:

ـ تعرف مشاعري نحوك.. لذا لن تدهش كثيراً.

شدها إليه وراحت أصابعه تلمس وجنتها بلطف:

ـ لقد كرهتك لأنها كانت ترى المشاكل التي جلبتها معك.. عرفت أنك غير مناسبة لآغنوس.. وبعد بضعة أيام أدركت أنني منجذب إليك، ولم تكن سعيدة بهذا فقد عرفت أنني وقعت في ورطة وهذا ما لم يدفىء قلبها تجاهك.

ـ أتعرف أنك السبب. . ؟

ـ وكيف تعرف؟ ولو عرفت فلماذا تلومك؟ لو تمكنت من الابتعاد عنك لما حصل شيء. . ولهذا كنت قاسياً عليك. . لم أستطع الاختباء من ذنبي. .

ـ لو كان لدي أي إدراك أو تعقل لغادرت تي ناوي حالما أدركت أنني أقع في حبك. . ولكنني ظننت أنني آمنة لأنك بدوت تكرهني. وكانت سعادة لي أن أكون في المنزل ذاته معك لذا لم أتحمل الرحيل.

تأوه يجذبها إليه:

ـ آه! يا سيدتي الجميلة، لماذا برأيك لم أبعدك فوراً؟ لقد كنت لي عذاباً مستمراً، عذاباً لم أستطيع أن أعيش بدونه. في الليل، كنت أذرع غرفتي وأنا أتصورك تغمضين هاتين العينين الناعستين الزرقاوين. وأجد نفسي غاضباً بوحشية ومرارة من آغنوس، لأنك كنت تضحكين معه وتسمحين له بمعانقتك. ولا أظن أنني بقيت سليم العقل بعدما نظرت إليك أول نظرة. لقد نظرت إليّ بشيء من الصدمة. كانت عيناك متسعتين، وشفتاك ترتعشان، وأحسست أن جسدي كله ينكمش.

تعانقا حتى هددت مشاعرهما أن تطغى عليهما، فانسحبت هيلين من بين ذراعيه.

همس: «آه. . لا أدري إذا كنت أريد زوجة عاقلة مثلك!»

ضحكت بصوت خافت ثم ضمت رأسه إلى صدرها. . وتمتمت:

ـ عاقلة؟ لا أشعر أبداً أنني عاقلة. . ولكن حبيبي يجب أن نكون كذلك.

ـ أجل. . أعرف. . متى ستتزوج؟

نظرت إلى عينيه مبتسمة بعذوبة:

ـ أحس أنني زوجتك منذ الآن.

ضاقت العينان الرماديتان.. ومن تحت رموشه رأت نقطتي نور تثبان إليهما وهما تتفرسان في وجهها.

ـ أوه.. صحيح؟ هكذا أفضل سيدتي.. لأنني أشعر أيضاً أنني زوجك.. إنما لا تقلقي بعد الآن.. هه؟ ستتقبل بك أمي بلا معارضة أبداً.. قد لا تكونين بالضبط من في تفكيرها ككنة لها ولكنها تعرف منذ زمن بعيد أن أملها الوحيد في أن أتزوج هو في إيجادك ثانية.

هو على حق على الأرجح ولكنها في هذه اللحظات لم تكن لتهتم كثيراً.. فما تشعر به الآن يمكنها من التعامل مع مئة «حماة» والخروج منتصرة.

سألته: «وهل صممت على عدم الزواج؟»

ـ أجل إن لم أحصل عليك.. وكنت واثقاً أنني ما كنت لأرغب في صنف النساء الذي أظهرت نفسك به.

ـ لا أعتقد.. الجائعة للمال، الجشعة، الفارغة، والفا..

ـ أصمتي؟

أصمتها بيده، بكل بساطة ثم قال:

ـ وماذا كان بإمكاني أن أظن غير هذا؟ لقد ظهرت على أنك خطيبة أخي. ومع أنك أردتني بقوة لم تفسخي خطوبتك. عذبتني، ودفعتني إلى الجنون، وقلت لي إنك تحبينني.. ثم بعد شهر من رحيلك، قرأت في مقالة عن زواجك برجل يصلح أن يكون والداً لك. كرهتك لأنك استغفلتني.. لماذا تزوجته هيلين؟

احتضنته ثم راحت تقص عليه ما جرى في رحلة العودة إلى بريزبن عبر بحر تسمان، وما كانت عليه مشاعرها من إرهاق وعذاب بسبب طرده إياها بلا رحمة.

كانت مشاعرها تجاه كاين واضحة في لهجتها.. فحتى لتيرنت

لن تخفي كم كان يعني لها.

قال بعدما انتهت وبدا في صوته الأجش إدانة واضحة لنفسه:

ـ لقد عرفك أكثر مني.. فهل أحبك هيلين؟

ـ أجل.. كاين المسكين!

ـ وأنت؟

ـ لقد تعلقت به كثيراً.

ـ يا للشيطان المسكين.. وأنا من خلت أنني عشت في الجحيم! لا شك أنه عاش في عذاب شديد وهو يحبك ويعرف أنه لا يحصل إلا على عطفك.

كادت هيلين تبكي لتعاطفه مع الرجل الذي يحق له أن يكرهه.. في يوم ما ستخبره لماذا وضع كاين ذلك الشرط في وصيته بشأن زواجها ثانية، إنما ليس الآن.

همست:

ـ أوه.. كم أحبك. أحبك. لا أدري كيف أظهر لك كم أحبك! أحبك.. أحبك..

تمتم وابتسامته تتسع:

ـ هس، أيتها المخلوقة الرائعة. وبم تظنين أنني أشعر به نحوك؟ أتعلمين بدونك أشعر أن الكون كله مظلم، فأنت كل ما أحتاج إليه لأعيش.. أنت الأنفاس في جسدي والدم في شرايييني والجزء الآخر مني.. بعد هذه السنوات الناقصة وجدت الشخص الوحيد الذي سيجعل الحياة أكثر من عملية قلق يومي.. وأفكر كيف صدقت حين رأيتك أنني أكرهك!

ـ آه.. كان ذلك لأنك كنت على ظنك بأنني جشعة عديمة المبادىء.. تزوجت من أجل المال.. فكيف تحب امرأة كهذه؟

كان صوتها ناعماً تأمل أن تضحكه.. لكنه رفع يده ومرر إصبعه على عنقها، وقال بصوت أجش:

ـ لا . . فما زلت لا تفهمينني. لقد كرهتك لأنني نظرت إليك فوجدتك متكبرة، باردة، رابطة الجأش وهذه هي المزايا التي وفرها لك المال الذي بعت نفسك من أجله. ثم عرفت أنني ما زلت أحبك، وأنك مهما كنت، ومهما فعلت ستبقين مالكة قلبي وروحي فجنّ جنوني. أردت قتلك لأنك جميلة، وبشعة من الداخل. . وكنت أعرف طوال الوقت أنني سأنتهي زاحفاً على ركبتي لأصل إليك، وكان واضحاً لي أن السحر القديم ما زال موجوداً. . كانت مشاعري مزيجاً متفجراً من الرغبة والمرارة والازدراء. . وكان كل ما شعرت به تجاه ذاتي الاحتقار والازدراء.

سحب نفساً عميقاً متحشرجاً فبرقت العينان الرماديتان عيناها هي.

ـ نعتني بالبربري، ولو عرفت كم كنت قريبة من الوصف لوليت هاربة.

اعترفت: «كدت أولّي هرباً مراراً. . ولكنني لم أستطع. . قلت لنفسي إنه لا يحق لك وضعي بعيداً عن هنا أيضاً، لكنني كنت أخادع نفسي. . لأنني رغم معاملتك السيئة كنت أسعد حالاً وأنت بقربي أكثر من الفراق».

همس: «حبيبتي. . يا سيدتي الجميلة. . يا حبي الوحيد. . كيف لك أن تبقي على حبي بعد ما فعلته بك؟»

داعبته عيناها ثم تمتمت:

ـ بصعوبة. . أوه. . بل بغاية السهولة. . يا حبي. . ما كان عليّ إلا أن أسأل نفسي كيف هي الحياة بدونك. وبعدما استعدت وعيي من الذعر الذي أوقعته الحادثة في نفسي. . عرفت أنني لن أستطيع العيش بدونك ثانية فقررت أن أتقرب إليك على أمل أن تعرف حقيقتي يوماً. لقد ولّى كل ترددي وكبريائي ومنطقي وتعقلي، ما إن أدركت أنك على شفير الموت.

لم تجرؤ على الاعتراف بما فكرت فيه أيضاً . . قال بهدوء :

ـ وكنت سآخذك بين أحضاني . . فقد كنت مثلك أفكر وأنا مستلق في المستشفى أنني سأموت إن لم أستطع أن أضمك ثانية.

عادا إلى المنزل . . وكانت هيلين تشكر كاين اللطيف الذكي الذي ترك هذا الممر مفتوحاً نحو سعادة لم يعرفها هو أبداً . .

* * *

www.liilas.com

روايات احلام

الزهرة والحجر

الحب الحقيقي كالنار المستعرة في الذاكرة يحترق..

لا يمرض، لا يشيخ، لا يموت... وعن نفسه أبداً لا يفترق..

ترى ماذا تفيد هيلين أقوال الشعراء بعدما طردها تيرنت

بايتون من حياته؟ وهل ستهتم بعد هذا إن تزوجت رجلاً

غيره ما دامت محكومة بقضاء العمر بلا قلبها؟

بعدما مرّ تيرنت في حياتها وغادرها كالإعصار، امتلكت

هيلين كل ما تحلم به امرأة، ولكنها تمنت لو تستطيع امتلاك

شيئاً واحداً... نعمة النسيان!